مصطفى محمود



الطبعة السابعة



دار المعارف

الصمت

نحن نتبادل الكلمات والحروف والعبارات كوسائل للتعبير عن المعانى وكأدوات لكشف كوامن النفوس .. ونتصور أن الحروف يمكن أن تقوم بذاتها كبدائل للمشاعر ، ويمكن أن تدل بصدق على ذواتنا ومكنوناتنا .

والحقيقة أن الحروف تحجب ولا تكشف .. وتضلل ولا تدلل .. وتشوه ولا توضح .. وهى أدوات التباس أكثر منها أدوات تحديد ..

يقول الحبيب لحبيبته :

— أحبك .

وهو يقصد بذلك التعبير عن حالة وجدانية خاصة جدًّا وذاتية وجديدة عليه ، فلا يجد إلا كلمة هى صك مستهلك تهرأ من كثرة

الاستعمال .. كلمة أصبحت ماركة مسجلة لأردإ أنواع البضائع .. كلمة حولتها الأغاني المبتذلة والهزليات المسرحية إلى مبولة أو بالوعة، أو في أحسن الأحوال إلى منشفة لتجفيف ما ينضح من العرق في حالات فسيولوجية عديدة ومتناقضة.

ولكنه لا يجد غيرها.

فإذا حاول أن يستخرج من قاموس الحروف ومعجم العبارات كلمات أخرى فإنه لا يجد إلا المجاز والاستعارة والبيان والبديع وضرب الأمثلة .. فيقول لحبيبته إنه يحبها كما تحب الوردة ندى الفجر، أو كما تحب ظلمة الليل شعاع الشمس، أو كما تحب صغار العصافير أعشاشها .. وهو كلام فارغ آخر يترجم الحالة الخاصة الفريدة إلى سلسلة من البدائل المزورة، ويحول الشعور البكر إلى ثرثرة جوفاء لا تدل على شيء ..

ولو أنه صمت لكان صمته أبلغ ..

وللصمت المفعم بالشعور حكم أقوى من حكم الكلمات .. وله إشعاع وله قدرته الخاصة على الفعل والتأثير ..

والمحب الصامت يستطيع أن ينقل لغته وحبه إلى الآخر .. إذا كان الآخر على نفس المستوى من رهافة الحس — وإذا كان هو الآخر قادرًا على السمع بلا أذن والكلام بلا نطق.

والإنسان معجزة المخلوقات ..

وهو ليس آلة كاتبة .. ولا أسطوانة ناطقة

وهو أكثر من مجرد آليات جسدية ..

هو عقل وروح ووجدان ..

وذاته مستودع قوى وأسرار إلهية .

وهو يستطيع أن يتكلم بلا نطق .. ويسمع بلا أذن .. ويرى بلا عيون .

ونحن نرى فى الحلم بلا عيون ونسمع بلا آذان ونجرى بلا سيقان ..

وقد رأى المبصرون بعيون طه حسين ما لم يروا بعيونهم ..

وفى رؤى أبى العلاء وأشعاره ما لا تتطاول إليه عيون للمبصرين أصحاب العيون .

والحقائق العالية تقصر دون بلوغها الحروف والعيون والآذان ..

وإنما خلقت الحروف للتعبير عن أشتات العالم المادى وجزئياته ، وهى مجرد رموز ومصطلحات ونظائر لما نرى حولنا من شجر وحصى ورمل وبحر وتلال ووديان وجبال .

أما عالمنا الداخلى .. وسماواتنا الداخلية .. وسرائرنا العميقة .. فتقصر دونها الحروف ولا تصورها كلمات ..

وكلما كان شعورنا حميمًا ، وكلما كان حبنا متغلغلا فى شغاف القلب مالكًا ناصية السر ، ساكنًا لب الفؤاد عجز اللسان وتضعضعت الكلمات وتقطعت العبارات ..

والحقائق الإلهية أكثر استحالة على الألفاظ .

هنا الألفاظ تتحول إلى جلاميد صخر لا تصلح على الإطلاق لوصف ذات الله المطلقة .

والألفاظ فى رحاب الله .. أستار وحجب .. والكلمة حائل .. والعبارة عائق .. والاصطلاح عقبة .

يقول الله سبحانه فى مخاطباته القدسية للصوفى الصالح محمد بن عبد الجبار :

كل ما فوق وتحت وعن يمين وشمال وكل ما بدا ليس منى .

الحروف لا تدل علىّ .. الكلمات لا تدل على أوصافى ..

أوصافى التى تحملها العبارة هى أوصافك بمعنى ..

وحينما أقول إنى أنا الرحيم فإنك تفهم رحمتى برحمتك وما رحمتى يا عبدى كرحمتك .

إنما أوصافى من وراء العبارة .

ومن أوصافى إنى « الأبد » .. ولا عبارة فى الأبد ..

أنا الذى ليس كمثله شىء .

فيا مختلف لا تستدل علىّ بمختلف فتخطئ الطريق إلى معرفتى ..

إنما يكون تعرفى إليك بلا نطق وبلا عبارة .

وإذا جاءك وصفى بلا عبارة فقد جاءتك الحقيقة .

وإذا وقفت فى حضرتى فسترى الحروف أصنامًا والعبارات أوثانًا ..

ويقول الصوفي الصالح في دعائه وابتهاله :

« يا ربّ لا تَذْرُني بمذراة الحروف في معرفتك » فيشبه الحروف بالمذراة التي تذرو كل شيء فلا توصل إلى معرفة حقة ..

هذا هو عالم السر والطلسم الذي يتم الاتصال فيه بالروح بدون مواصلات المادة وبدون أداة الكلمة ..

يقول الله سبحانه في مخاطباته الإلهية للصوفي محمد بن عبد الجبار :

الحرف حجاب .

الحرف يعجز عن أن يخبر عن نفسه فكيف يخبر عني .

أنا خالق الحرف وما يخبر عنه الحرف فإنا من وراء الاثنين .

اخرج عن الحرف ، اخرج عن نفسك ، اخرج عن اسمك ، اخرج عن كل ما بدا تكن في حضرتي . أُصْمت منك الصامت ينطق الناطق بالضرورة » والناطق هنا الروح » . .

وهذا هو عالم المطلقات الذي لا تحلق إليه كلمات ولا تسمو إليه ألفاظ .

ومعدن الحب الشفيف العالي هو من نفس معدن هذه المطلقات ولغته من لغتها .. فهو من خصائص الروح .. وهو في صميمه انعطاف روح قبل أن يكون انعطاف جسد ، وحينما تبلغ المشاعر إلى تلك المنطقة يسكت اللسان وتصبح اللغة صمتًا .

.. ولهذا أحب الصمت وأوثر الصمت كلما شعرت بهذا القرب

الحميم نحو إنسان .. ذلك القرب الذى يتسلل إلى الشغاف ويسكن الحنايا دونما صخب ودونما ضجيج ودونما اضطراب .

فهنا لا وجود للانفعال المبتذل الذى تتكلم عنه الأغانى ولا وجود للأوجاع والبكائيات .

ولا مكان لبلاهة قيس وأشعاره .

ولو أنى استعرت تلك الكلمات القديمة لأعبر بها عن ذلك القرب الحميم لكنت ثرثارًا أجوف أتكلم عن رجل آخر غيرى ..

فهنا شعور جديد تمامًا وخاص جدًّا وذاتى .

هنا حضور مؤنس يشيع الدفء والبهجة الهادئة والإحساس بالمعية التى تطرد الوحشة والوحدة ..

هنا كل شىء هامس خافت بلا صوت وبلا صورة وبلا لفظ وبلا غرض وبلا مأرب ..

فما أبلغ الصمت

وما أقدره على التعبير

الصـراخ

نحن فى عصر الصراخ ..

مدنية اليوم اسمها بحق .. مدنية الصراخ .

علاقة الحب صراخ ..

وعلاقة الزواج صراخ ..

وعلاقات المجتمع صراخ طبق .

وعلاقات الدول صراخ سياسى .

والشعارات صراخ فكرى .

والمذاهب تحريض علنى للأغلبيات على الأقليات والأقليات على الأغلبيات ولافتاتها المرفوعة هى الصراخ والهتاف والصياح والنباح .

والبيوت التى ترفع لافتة الحب على بابها .. تعيش حياة هى أقرب

إلى الصراع على السلطة منها إلى تعاون المحبة والرحمة بين أزواج وزوجات .. حياة أقرب إلى صراخ يومى وتنازع حكم ورأى فى كل شيء ، وكأنما المطلب الذى يصحو به كل واحد هو من يحكم اليوم .. من يسود .. من يمسك باللجام .

وإذا أعوزت المرأة مبررات السيادة والقيادة التمستها بالغيرة، واتخذت من الشك ذريعة حصار وسببًا لإيداع الزوج السجن ، وإعلان أحكام الطوارئ فى البيت ليل نهار ، ومصادرة الخطابات والتسمع على التليفونات وتفتيش الملابس الخارجية والداخلية .. فإذا لم تعثر على جسم الجريمة ولم تضبط أحرازًا .. فإنها تعلن أنه لابد من تفتيش الدماغ وكسرها إن أمكن بالقبقاب أو بالحجج الفلسفية حسب درجة ثقافتها وحسب حظها من التربية فى بيت أبيها .. فإذا لم تجد شيئًا فى دماغه .. فلابد إذن أنه كان هناك شيء فى الماضى قبل أن يتزوجها .. لابد أنه كان على علاقة ما فى يوم ما .. فهذا شأن جميع الرجال الملاعين .. وجميع الرجال ملاعين .. إلى أن يثبت العكس .. ولا يمكن أن يثبت العكس أبدًا .

المهم أن يصل الحوار إلى صراخ وعويل ولطم وندب .. ومرة أخرى تتوقف ردود الفعل على حظ الزوجة من الثقافة ومن تربية البيت .

ودائمًا فى كل زواج هناك شيء ناقص .. إذا وجد الحب صرخت

الزوجة لأنها لا تجد كفايتها من المال ، وإذا وجد المال صرخت لأنها لا تجد كفايتها من الحب ، وإذا وجد الاثنان صرخت لأن الزوج له ماض ، وإذا وجد كل شيء التمست سببًا للنكد فى حياة الأولاد .. المهم أن تصرخ وتفش الغل .. ودائمًا هناك غل بسبب وبدون سبب وكأنما الغل هو التراث الحضارى المشترك للنساء جميعًا .

صدق الله العظيم حينما قال فى قرآنه عن أهل الجنة :

(ونزعنا مافى صدورهم من غل) .

لأن الغل هو السر فى الجحيم الذى نعيشه .

الغل فى المرأة وفى الرجل وفى الدولة .

حتى الغل فى الضحك هو عنوان تعاسة .. الضحك المغلول والتهريج المجلجل والمرح الوحشى هو الآخر عنوان افتعال .. ومحاولة مصطنعة لتغطية أصوات القلق والحزن الدفين واليأس الأكَّال فى داخل القلب بأجراس الضحك وبقرع الكؤوس المخمورة .

والسعادة الحقة لا يمكن أن تكون صراخًا .. وإنما هى حالة عميقة من حالات السكينة تقل فيها الحاجة إلى الكلام وتنعدم الرغبة فى الثرثرة .. هى حالة رؤية داخلية مبهجة وإحساس بالصلح مع النفس والدنيا والله ، واقتناع عميق بالعدالة الكامنة فى الوجود كله ، وقبول لجميع الآلام فى رضى وابتسام .

والسعادة الحقة نوع من أنواع شهود الله فى آيات عظمته ، أوكما

يقول الصوفى محمد بن عبد الجبار .. هى شهود « ما لا ينقال » .

يقول لك ذلك الصوفى .

إن لم تشهد « مالا ينقال » تشتت بما ينقال . وتوزعت بين آلاف المقولات والمغريات ، وتعلقت بما لا يدوم وبما لا يثبت للحدثان .. كما تتعلق الموجة بالموجة . وكما يتعلق المتحرك بالمتحرك ، والناقص بالناقص ، والزائل بالزائل ، والمنهدم بالمنهدم .. وهو مثل لجوء الخراب إلى الخراب والخراب لا يصلح ملجأ .. ولهذا ينتهي أمرك إلى الخيبة والفشل .

ولهذا لا يصح التعلق إلا بالله .. لأنه هو وحده الثابت الصامد « الصمد » الذى لا يتغير ولا يتقلب ولا تلحق به العوارض .

وبين يدى الله . السكينة هى الحال والصمت هو المعرفة ، لأن المطلق لا تسعه عبارة ولا تحيط به حروف .. فالجهل به هو عين معرفته والصمت هو عين إدراكه .

ولهذا يرى الصوفى محمد بن عبد الجبار أن الحب بمعناه المتداول وهو « أن تحتل امرأة عقل رجل وتسد عليه جميع أقطاره وتصبح شاغله ومطلبه الوحيد » هو باب من أبواب الكفر والشرك .

ويقول الله للصوفى فى مخاطباته :

إن جعلت لغيرى عليك مطالبة أشركت بى فاهرب هربين هربًا من الغريم وهربًا من يدى .

ويقول الإمام الغزالى نفس الرأى فى هذا اللون من الحب الدارج .. إنه سقوط بالهمة .. لأنه تعلق بهواء .. تعلق الزائل بالزائل.

ولهذا وصف القرآن العلاقة السوية بين الرجل والمرأة بأنها المودة والرحمة ، ولم يسمها حبًّا ، وجعل الحب وقفًا على علاقة الإنسان بالله ، لأنه وحده جامع الكمالات الجدير بالحب والتحميد ، وجاءت لفظة الحب فى القرآن عن حب الله وحب الرسول .. وجاءت مرة واحدة عن حب المرأة على لسان النسوة الخاطئات حينما تكلمن عن امرأة العزيز وفتاها الذى « شغفها حبًّا » .. وهو حب رفضه يوسف واستعصم منه واستعان بربه ، وآثر عليه السجن عدة سنين.

وهى جميعًا مؤشرات تكشف عن سبب الإحباط العام والتعاسة فى مجتمعات العصر وبيوته .. بسبب حب هو كفر ، وزواج هو أنانية ، وصراع طبقى هو حقد ، ومذاهب هى انتقام ، وشعارات هى كذب .. وعالم ضاعت منه المودة والرحمة ، وافتقد الإيمان بالملجأ الحقيقى ، وأصبح شعاره لجوء الخراب إلى الخراب.

لجوء الشباب إلى الجنس والمخدرات الذى لا يختلف كثيرًا عن لجوء أمريكا إلى العنف ، ولجوء اليهود إلى العنصرية ، ولجوء الطبقات المطحونة إلى أوهام المذاهب المادية ووعودها وتحريضها .. ثم محاولة إغراق الخيبة النهائية والفشل النهائى فى شعار ملفق . أو دعاية كاذبة أو مباراة كرة أو صراع ثيران أو طبل وزمر .. ثم يعود فيغرق الفرد يأسه

فى حب أوكأس ، أو نوبة غضب أو رفض لكل شىء ، أو اتهام للكون وخالقه بالعبثية ، مع أن الكون كله من أكبر مجرَّة إلى أصغر ذرة ينطق بالنظام والإحكام والإبداع ويشهد بالخطة .. وبأنه لا شىء فيه خُلِقَ عبثًا .

ويقول أصحابنا الماديون إن الكلام الكثير فى الله والدين ترف ليس هذا وقته ولا أوانه .. ويقولون .. لسنا ملحدين ولا دعاة إلحاد إنما نقول فقط إن هذه المسائل غير مطروحة ، وإن هذا ليس أوانها .. وأقول لهم أنا : بل هى مطروحة بشدة وهذا أوانها .

أقول لهم : إن هذا الصراخ والصياح وخراب النفوس وتمزق الأرواح سببه الأول اعتقاد أصحابها أنهم يعيشون فى عالم بلا إله .. وأنهم يبحثون عن عدل دون اعتقاد فى عادل .. ويحاولون النهوض بحياة يعتقدون أن مصيرها التراب .

وإذا صدقنا معهم أننا لا نملك إلا لحظتنا وحياتنا هذه فإنه لا يبقى أمامنا إلا أن نتقاتل عليها فى بشاعة ، ثم نموت كلنا وندفن السيد إلى جوار العبد وصاحب العمارة إلى جوار بوابها بدون معنى لكل تلك الضراوة والبشاعة التى تقاتلنا بها .

اعتقاد هو الخراب بعينه .

وحماسة تهزم نفسها بنفسها وتنقض نفسها بنفسها ، ولا تلد إلاَّ نفوسًا شائهة تصرخ وتصرخ بلا مقتض وبلا موجب مفهوم .

وقديمًا قالوا إن البيوت السعيدة لا صوت لها .. ولا أحد يتخذ منها مادة للكلام ولا أحد يروى عنها قصة أو يكتب رواية أو ينتج فيلما .. وفى رواية الحب التقليدية يسدل الستار دائمًا عندما يصل الحبيب والحبيبة إلى المأذون ، لأن المؤلف يتصور حينئذ أن الكلام انتهى ، وأنه لم يعد هنالك ما يقال ، لأن السعادة بدأت والسعادة عنوانها الصمت .

فأين هى تلك البيوت السعيدة الآن ؟

ما أقلها ؟

عن الروح والجسد

سر من أسرار السعادة هو انسجام الظاهر والباطن فى وحدة متناسقة متناغمة .

إن غروب الشمس وانسدال العتمة فى حنان ، والنظام المحكم الذى يمسك بالنجوم فى أفلاكها ، وإطلالة القمر من خلف السحاب وانسياب الشراع على النهر ، وصوت السواقى على البعد ، وحداء فلاح لبقراته ، ونسمات الحديقة تلف الشجرات التى فضضها القمر كوشاح من حرير .. إذا اقترنت هذه الصورة الجميلة من النظام والتناسق بنفس تعزف داخلها السكينة والمحبة والنية الخيرة .. فهى السعادة بعينها .

أما إذا اقترنت هذه الصورة من الجمال الخارجى بنفس يعتصرها

الغل والتوتر ، وتعشش فيها الكراهية ، وتنفجر داخلها قنابل الثأر والحسد والحقد ونوايا الانتقام .. فنحن أمام خصومة وتمزق وانفصام . نحن أمام هتلر لا حل له إلا أن يخلق حربًا خارجية تناسب الحرب الداخلية التى يعيش فيها .. نحن أمام شقاء لن يهدأ إلا بأن يخلق شقاء حوله .

إن السعادة فى معناها الوحيد الممكن هى حالة الصلح بين الظاهر والباطن ، بين الإنسان ونفسه بين الإنسان والآخرين وبين الإنسان وبين الله . فينسكب كل منهما فى الآخر كأنهما وحدة ، ويصبح الفرد منا وكأنه الكل .. وكأنما كل الطيور تغنى له وتتكلم لغته .

أما الصورة الدارجة للسعادة التى تتداولها الألسن عن شلة الأنس التى تكرع الخمر فى عوامة وحولها باقة من النساء الباهرات العاريات ، وأجساد تتخاصر ، وشفاه تتلاثم فى شهوة مشتعلة وأفواه تتنفس الحشيش فى خدر وتلذذ .

هذه الصورة هى حالة شقاء وليست حالة سعادة ، فنحن مع نفوس تركت قيادها للحيوان الذى يسكنها ، وكرست حياتها لإرضاء خنزير كل همه أن يأكل ويضاجع .

هى حالة عبودية .. حالة غرق للإنسانية فى مخاط الحيوانية اللزج .

ومثلها حالة السعداء الآخرين الذين يتسلق بعضهم على بعض جريًا وراء المناصب ، والآخرين الذين يكلسون المال والطين

والعقار ، ويلتمسون السلطة والقوة بكل السبل .

فالسعادة لا يمكن أن تكون فى المال أو القوة أو السلطة بل هى فى « ماذا نفعل بالمال والقوة والسلطة ؟» .

فى النفس التى تستخدم المال والقوة والسلطة .

السعادة ليست فى البيت المفروش بالسجاجيد العجمى والشينوا والكريستال ولكن فى النفس التى تسكنه .

« والخارج » لا يستطيع أن يقدم لنا شيئًا إذا كنا نحن من « الداخل » .. من نفوسنا .. غير معدين للانتفاع بهذه المنحة الخارجية السخية .. وإذا لم نكن فى صلح مع هذا الخارج وفى تكيف معه .

وفى قصة لتولستوى يقول الإقطاعى للفلاح الطامع فى أرضه سوف أعطيك ما تشاء من أرضى . تريد عشرة فدادين .. مائة فدان .. ألفًا .. لك أن تنطلق من الآن جريًا فى دائرة تعود بعدها إلى مكانك قبل أن تغرب الشمس فتكون لك الدائرة التى رسمتها بكل ما اشتملت عليه من أرض .. شريطة أن تعود إلى نقطة البدء قبل غروب الشمس ، أما إذا غربت الشمس ولم تعد فقد ضاعت عليك الصفقة .. ويفكر الفلاح الطماع فى دائرة كبيرة تشمل كل أرض الإقطاعى .. وهو مطمع يحتاج منه إلى همة وسرعة قصوى فى الجرى حتى يحيط بها كلها فى الساعات القليلة الباقية على الغروب .

ويبدأ فى الجرى وكلما تقدم الوقت كلما وسع من دائرته اغترارًا بقوته

وطمعًا فى المزيد ، وتكون النتيجة أن تتقطع أنفاسه ويسقط ميتًا قبل ثوان من بلوغ هدفه .. ثم لا يحصل من الأرض إلا على متر فى متر يدفن فيه .. وهذه هى حاجة الإنسان الحقيقية من الأرض بضعة أشبار يرقد فيها .. وهو ينسى هذه الحقيقة فيعيش عبدًا لأهواء وأطماع وأوهام تضيع عليه حياته .

وقد فطن تولستوى إلى هذه الحقيقة فوزع أرضه على الفلاحين وهرب من بيته الأنيق الدافئ وسكن فى كوخ حقير مع الفقراء المعدمين .

وكذلك فعل غاندى الذى عاش على عنزة يحلب لبنها ويغزل صوفها .

وكذلك فعل المسيح الذى عاش بلا بيت وبلا زوجة وبلا ولد .. لا يملك إلا ثوبه .

وهؤلاء هم السعداء العظام الذين جاءوا ليعلموا الناس كيف تكون السعادة .

قال لنا بوذا إن السعادة فى قمع الرغبة وردع النفس وكبح الشهوة ، بذلك وحده يكون العتق الحقيقى للروح وتحررها من سجن الجسد .

وقال لنا المسيح : « من أهلك نفسه فى سبيلى وجدها » .

وقال طالوت لجنوده فى القرآن : (إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب

منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى) .

والله يقول فى حديث قدسى إلى الصوفى ابن عبد الجبار : « يا عبد جعت فأكلت .. ماأنت منى ولا أنا منك ، عطشت فشربت .. ما أنت منى ولا أنا منك . إنما أظهرت الشهوات حجابًا عليك لأمتحن محبتك ، فإن اخترتنى دون جميع شهواتك كشفت لك عن ذاتك وما عدت أسترك بشهوة .. إنما الشهوة تأتيك من ناحية جسدك .. أما ذاتك فقد خلقتها خالصة مبرأة لا تميل إلا إلىّ وحدى » .

وكلها إشارات ورموز إلى الحقيقة .

فنحن لم نوهب الشهوة لنشبعها أكلا وشربًا ومضاجعة وتكديسًا للمطامع والثروات .. وإنما وهبنا الشهوة لنقمعها ونكبحها ونصعد عليها كما نصعد على درج السلم .

فالجسد هو الضد الذى تؤكد الروح وجودها بقمعه وكبحه وردعه والتسلق عليه .

وبقمع الجسد وردعه وكبحه تسترد الروح هويتها كأميرة حاكمة وتعبر عن وجودها وتثبت نفسها وتستخلص ذاتها من قبضة الطين ، وتصبح جديرة بجنتها وميراثها .. وميراثها السماء كلها ، ومقعد الصدق إلى جوار الله .. وهذه هى السعادة الحقة .

أما إذا غلب حكم الطين وانتصرت الجبلة الحيوانية وقَرَنَ الإنسان ذاته الشريفة بالمادة الطبيعية فقد هبط بنفسه إلى سجن الضرورات

وإلى غلظة الآلية وإلى نار الطبيعة التى يأكل بعضها بعضًا وأصبح منها وفيها ولها .. وتلك هاوية التعاسة والتمزق والشتات .

وطريق الإنسان هو هذا الكدح خارجًا من قبضة مادته إلى نورانية روحه .

(يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه) .

وهو فى مكابدة دائمة من لحظة ميلاده يتأرجح بين قطبى جسده وروحه فى قلق لا يهدأ وصراع لا يتوقف .. يصعد ثم يسقط ثم يعاود الصعود ثم يعاود السقوط .

وكل منا له معراج إلى الكمال .

وكل منا يصعد على قدر عزمه وإيمانه .

ولا صعود دون ربط الأحزمة على البطون وكبح الشهوات .

والكامل حقًّا لا يرى فى الحرمان حرمانًا فموضوعات اللذة المادية لم تعد بذات قيمة فى نظره ، فهو قد وصل بإدراكه العالى إلى تذوق المتع الروحية واللذات المجردة .. فأصبحت الماديات بعد ذلك شيئًا غليظًا لا يسيغه .. وهو ارتقاء أذواق وليس فقط ارتقاء همم وعزائم .

والصوفية يسمون هذا المعراج النفسى بالخروج .. الخروج من الصفات البشرية إلى الصفات الإلهية .

والله يطوى الصفات البشرية عن أحبابه كما يطوى لهم الأرض ويجذبهم إليه .. وهى الجذبة الصوفية .. وهى إذا جاءت لصاحبها على

غير استعداد جعلت منه مجذوبًا خارجًا عن صوابه ، وهى رتبة دون الكمال .. لأن الكمال هو الصلاح بوعى .. وليس الصلاح بفقد الوعى .

والأنبياء فى هذا الموضوع هم القدوة .

ولم نعرف نبيًا واحدًا كان مجذوبًا أو هائمًا على وجهه بلا عقل .

وهذه إحدى مزالق الطريق الصوفى .. أن يتعجل السالك الطريق برياضات الخلوة الحادة ومجاهداتها المضنية فيفقد حيوانيته وعقله معًا .

والقرآن كان هو المنهج الأمثل لهذه التزكية النفسية فاختار طريق الوسط .. طريق الاعتدال ، بين الإفراط والتفريط .

(كلوا واشربوا ولا تسرفوا) .. فنصح بضبط النفس على جادة الاعتدال .. لا رهبانية وصيام الدهر .. ولا إطلاق لعنان الشهوات .. وإنما ضبط السلوك على دستور الشريعة والوصايا .. وهو منهج يؤدى إلى العروج الروحى دون تعسف ودون جذب .

ولا يهتم المسلم السالك بأن تجرى على يديه الكرامات وخوارق العادات وإنما هو يقول .. أعظم كرامة هى الاستقامة .

والاستقامة هى سمت الإنسان حقًا .

وهى تلك الحالة التى وصفناها فى بداية المقال بأنها انسجام الظاهر والباطن فى وحدة متناسقة متناغمة .. وأنها حالة الصلح بين الإنسان ونفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله .

جهنَّم

لا نسمع كلمة «جهنم» هذه الأيام إلا فى نكتة .

وقد تحولت جهنم فى ذهن الرجل العصرى إلى أسطورة يذكرها وهو يبتسم ، وكأنما يتذكر منظرًا فى رواية لدراكولا .

وأصبح مألوفًا أن نجد بين المؤمنين من يتكلم عن جهنم فى شك ..

ونسمع من يتساءل قائلا :

«كيف يعذبنا الإله الرحيم .. ومن نحن حتى يعذبنا .. إنه لا شك يخوفنا ولكنه سوف يفاجئنا يوم الحساب بالعفو الشامل ويدخلنا برحمته جميعًا فى الجنة .. مستحيل على الإله الرحيم أن يعذب أحدًا .. مستحيل .. » .

ويتصور المتكلم أنه بذلك يرد اعتبار الرحمة للرحيم وأنه يقدر الله

حق قدره .. والحقيقة أنه يسيء إلى الخالق من حيث يتصور أنه يحسن . ويلصق به الظلم من حيث يتصور أنه يصفه بالعدل .

تلك الصورة الساذجة لإله يساوى بين المجرمين وبين ضحاياهم فى الجزاء ويقيم للقاتل والقتيل كليهما حفلة شاى ..

من يكون ذلك الإله إلا إلهاً ظالماً ..

وهل يستوى الأبيض والأسود إلا عند الأعمى ؟

إنه منتهى سوء الظن بالله أن نتصور أنه يضع كل الناس فى الجنة ويساوى بين السفاحين الجبارين وبين الألوف من قتلاهم الأبرياء الذين هلكوا فى السجون .. لمجرد أننا لا نتخيل إلهاً يعذب .

ولا أدرى من أين جاء المؤمن أو الكافر بأن الله لا يمكن أن يعذب ؟

وإذا اتخذنا دنيانا مثلا .. واتفقنا بأن هذه الدنيا التى نعيشها من خلق الله .. فلابد أن نوافق بالإجماع على أن الله يعذب .. فلا شئ فى هذه الدنيا أصدق من العذاب ..

من الذى خلق الميكروب ؟

من الذى خلق السم فى الثعبان ؟

من الذى يفجر البركان ويغرق قرى بأكملها تحت الحمم الملتهبة ؟

من الذى خلق زمهرير القطبين ورفع الشمس عمودية تسلق جلود سكان خط الاستواء ؟

من الذى قضى علينا بآلام الشيخوخة وأوجاع الحمل ؟

من الذى يدفن المدن تحت الزلازل ؟

إنه ليس الشيطان .. ولكنه هو هو نفس الإله الرحيم الذى وضع العطر فى الزهرة والترياق فى العشب .. وهو هو نفسه الذى خلق الربيع والصحة وأودع القوة فى العضلات والحب فى القلوب والبسمات على الشفاه .. وهو هو ذاته خالق الحنان والمودة والتعاطف .. وهو الذى أعطانا العقل والحيلة لنركب البحر والبر والجو ، ونتغلب على الحر والبرد ، ونقاوم المرض والموت .

وهو هو الذى وفّر لنا الغذاء والكساء وأسبغ علينا ثوب العافية والسعادة .

وقد وصف نفسه فى كتابه فقال إنه النافع الضار .. وإنه المحيى المميت .. وإنه الخافض الرافع والقابض الباسط .. وإنه المعز المذل .. وإنه الفعال لما يشاء الذى يعذب من يشاء .. لا راد لقضائه ولا معقب لأمره .. ولا يسأل عما يفعل ..

وفى نفس هذه اللحظة التى أكتب فيها هذه الكلمات هناك عشرات من عربات الإسعاف فى كل مكان بالعالم تحمل على محفاتها محروقين يئنون ويتحشرجون ويصرخون ..

ولا شىء من هذا يحدث ضد المشيئة الإلهية .. وإنما كل شىء يحدث بعلم الله وتقديره .

وقد نفعل ما لا يُرضى الله فنسرف ونقتل وندمر ونحرق ولكننا لا نستطيع أن نفعل ما لا يشاء الله .. فجميع الأحداث والأفعال تحدث ضمن المشيئة الإلهية وإن خرج بعضها عن الرضا الإلهى .

وفى مشيئة الله وفى ألواح قدره أن هناك الشقى والسعيد ، وأن هناك من يقضى له بالنعيم ومن يقضى عليه بالعذاب بل بالحرق وفى هذه الدنيا عينها التى نعيشها .

ومصداق هذا الكلام واضح فى حياتنا وشواهده فى دفتر يوميات كل شخص .. وليس بحاجة إلى برهان .

وأكثر من هذا نعلم من خبراتنا المباشرة أن العذاب لا يتناقض مع الرحمة بل يكون أحيانًا هو عين الرحمة .. فهناك نفوس لا تستفيق إلا بالعذاب .. بل تكاد تكون القاعدة أن القلب لا يصحو إلا بالألم ، والنفس لا تشف وترهف إلا بالمعاناة ، والعقل لا يتعلم إلا بالعبرة ، والقدم لا تأخذ درسًا إلا إذا وقعت فى حفرة .. فجهنم الدنيا لا تتنافى مع العدل الإلهى إذا نظرنا للأمور كلها نظرة شاملة .. والحالات الفردية التى نعجز فيها عن رؤية الحكمة فى العذاب والتعذيب يكون سببها جهلنا وقصورنا عن الإحاطة وليس أبدًا ظلم الله ..

جهنم إذن موجودة بكل درجاتها فى النموذج المصغر والعينة التى نعيشها والتى اسمها الدنيا .. هى موجودة من الحريق الفعلى الذى يسلق الجلد نزولا إلى الألم النفسى والمعنوى .. وكلها من تدبير الله وفعله

وخلقه .. وكلها رحمة .. وكلها لحكمة أحيانًا تظهر لنا وأحيانًا تخفى علينا ..

هذه هى الحقيقة المشاهدة الملموسة .. فلماذا تستبعد العقول فكرة الإله الذى يعذب .. وفكرة جهنم .. مع أننا نعيش عينة مصغرة من جهنم كل يوم .

نقول هذا الكلام للذين فهموا الله فهمًا سطحيًّا وتصوروا أن العذاب والتعذيب محال عليه مناقض لرحمته ، وأنه سوف يسوى فى آخرته بين المجرمين والشرفاء فيدعو الكل إلى جروبى ويقدم لهم ما لذ وطاب باسم المحبة الخالصة التى وسعت كل شىء .

نقول لهم إن الله يعذب .

وإن عذاب الله دائمًا هو عين رحمته .

وإن هناك ضمائر لا تتيقظ إلا بالعذاب .

وإن هناك عقولا لا تعرف الله إلا حينما ترى عذابه ، وإن هناك نفوسًا مظلمة لا تشهد الحق فى النعمة ، ولا سبيل إلى تعريفها بالحق إلا بالعنف .. مثل اللحم الميت الذى لا علاج له إلا بالكى .

ولمثل هؤلاء جهنم هى عين الرحمة لأنها الوسيلة الوحيدة الباقية للتعليم بعد أن أصر المنكر على إنكاره والمتعامى على عماه وبعد استنفاد كل السبل السلمية للإقناع وبعد أن فشلت الكتب والرسل وعبر التاريخ وآيات السماء فى التماس مدخل إلى القلب .

حينئذ تصبح جهنم هى الجراحة الوحيدة الممكنة لفتح العين وإشهاد الحواس ..

وهى بهذا المعنى لا تتنافى مع رحمة الرحيم بل هى عين رحمته .

الجنّة

هى قادمة من لندن منذ أيام بعد سياحة قصيرة ... ذهبت وعلى وجهها براءة وفى خطوتها حياء .. وعادت متنمرة متحفزة تتدلى من شفتيها سيجارة تنفث دخانها متواصلا كمدخنة ، وقد وضعت ساقًا على ساق وراحت تحملق فى وجهى فى صرامة وحدة .

كنت فى عجب من التغير السريع .

أين ذهبت الأنوثة الفياضة والملامح اللذيذة الهشة مثل غزل البنات التى كانت تتلون بحمرة الخجل لأقل خاطر ؟

أنا أمام شيخ غفر .

سألت فى توجس لعلى أكتشف السر :

— ترى كيف رأيت لندن !

جاء ردها كطلقات مدفع رشاش :

– رأيت الجنة .. إنهم هناك يعيشون فى الجنة .. حرية .. حرية .. حرية .. حرية فى كل شىء .. البنت هناك تفعل ما تشاء كما تشاء تخرج وقتما تريد تعود وقتما تريد .. أولا تعود . إذا حلا لها ألا تعود .. تعانق فتاها أمام الجميع ، وتقبله أمام الجميع ، وتختلى به ويختلى بها ، وتفعل به ويفعل بها كل ما يلذ لهما دون خوف من أن تتلصص عيون الآخرين لتعرف ماذا يجرى تحت الملاءة .. العسكرى يحرس المنظر الجميل من الفضوليين ويحمى الخلوة بقوة القانون .. الأهل يباركون هذه الحرية الجنسية ولا يدسون أنفهم فيها .

لا أحد يسأل .. هل هو زوجك .. هل هو خطيبك .. متى نقول مبروك .. كل واحد فى حاله .. كل واحد له لذته وخلوته وصاحبته .. هذه هى الحياة .. هذا هو التقدم هذه هى الجنة .

كنت أستمع فى دهشة .. وأذكر زيارتى أنا الآخر للندن وكيف أعجبت بها .. ولكن لسبب آخر مختلف تمامًا .. فقد أعجبنى فيها النظام والجدية والعمل والإنتاج وديمقراطية الرأى .. ولم ألق بالا لظاهرة الهيبيز والتحلل الجنسى .. فقد رأيت فيها فى ذلك الوقت مظهرًا لتداعى إمبراطورية عظيمة وعرضًا من أعراض تصدعها .. ولو أن شباب بريطانيا بدا بهذه الصورة الرخوة المنحلة لما قام لبريطانيا بناء تحت الشمس ، ولما استطاعت أن تقتحم بأساطيلها البحار السبعة .. إنها

قصة ميلاد وموت الإمبراطوريات كما تعلمناها من التاريخ .. تبدأ بالعصامية والفقر والتقشف والصبر والكفاح وتنتهى بالشيخوخة فى الترف والانحلال .. قصة لا يمل التاريخ من تكرارها على أسماعنا ..

وأفقت من ذكرياتى وتأملاتى على صوت صاحبتنا يصفعنى من جديد :

– هيه .. متى تتقدمون أيها الرجال .. وتخلعون عنكم ثياب الرجعية والتخلف وتعاملون المرأة كآدمية لها الحق فى أن تستمتع .. متى نعيش أحرارًا .

قلت وأنا مازلت مندهشًا من هذا التحفز فى نبراتها :

– ولكنك على ما أعلم حرة .. أنت حرّة .. فى إمكانك أن تفعلى ما تشائين .. ليس فى رفقتك شرطى وليس فى يدك أغلال .. ولست رهن تحقيق أو اعتقال .. وإذا قررت بينك وبين نفسك أن تفوزى بمتعة فأنت تحصلين عليها فى غفلة من الجميع وبرغم أنفهم .

فصاحت بحدة :

– ولماذا لا أستمتع علنًا أمام الكل ؟ لماذا لا تكون الأحضان والقبلات مثل التموين المشروع نتبادلها بلا خوف ؟ لماذا لا تكون الحرية الجنسية فى بطاقة تموينا ؟ مثل السكر والزيت والشاى حقًّا مقررًا لا نقاش فيه ولا عيب ولا حرام ؟

لبثت لحظة أمسك رأسى محملقًا فى هذه التى عرفتها عذراء مثل

فتافيت السكر .. كيف تتكلم الآن فى ضراوة مثل الغولة ؟

وأعجب ما فى الأمر .. أنها كانت تتكلم فى زهو وخيلاء .. وكأنما تحمل إلى العالم بشارة جديدة أو نظرية عميقة أومذهبًا فلسفيًّا !

قلت لها :

– ولكن هذا مذهب القرود .. وهو أمر قديم جدًّا لا تقدم فيه ولا تقدمية .. فالقرود يتناكحون ويتلاقحون ويتعانقون فى الأقفاص ونحن نصفق لهم ونبارك حريتهم ونلقى إليهم بالموز والسودانى .. هذه نظرية لا يحتاج اكتشافها إلى رحلة إلى لندن وإنما تكفى رحلة إلى جبلاية القرود .. لقد كلفت نفسك مشوارًا طويلا بدون مقتضى .

قالت فى غيظ :

– سوف تعود إلى كلامك الفارغ .

والحق أنى كنت فى حيرة من كل هذا الغيظ .. ومن كل هذا الغل الذى جرى به الحوار .. فليس بيننا ثأر قديم على ما أعلم وإن كنت أدعو إلى العفة .. فإنى لا أفعل هذا لحسابى الخاص .. وإنما هى حقيقة وخبرة وممارسة ومعاناة وخلاصة عمر .. أحاول أن أوصل ثمرتها إلى الآخرين .. وأطرح أمامهم رأيًا حرًّا وليس فى المسألة تحد .

وجاءنى صوتها عنيدًا مكابرًا .

– على العموم إذا كنت أتفادى الصدام معكم إلى الآن .. وإذا كنت أخضع أحيانًا لتقاليدكم البالية أيها الرجال .. فإنما أفعل هذا

إشفاقًا عليكم لأنكم مساكين .. إشفاقًا على الأب والأخ والصديق « بتصعبوا عليه » .

أخيرًا .. قالت كلمة حق .. فنحن مساكين فعلا .. ومع مثل هذه العقلية النسائية سنكون جيلا مسكينًا من الرجال .. « نصعب ع الكافر » .

وليست جنة أبدًا تلك الخلوة التى تجمعنا مع مثل هذه العينة من النساء ولو كانت فى هايدبارك فى لندن تحت أشجار الزيزفون يفعل كل منا بالآخر ما يلذ له .

فهؤلاء لسن نساء .. وإنما غيلان ..

ونظرت إلى وجهها المتنمر ورحت أبحث عن فتافيت السكر التى كانت تمس شغاف القلب .. فوجدت وجهًا تبخرت منه الأنثى وبقى شىء متصلب لا يصلح لأن يكون وجهًا لأنثى ولا وجهًا لرجل .. ولا حتى سحنة لشيخ غفر ..

السائل السحرى

ليس أحلى من طعم الماء فى فم العطشان .

إنه أحلى من العسل والخمر .

وأحلى من القبلة .

وأغلى من مليون جنيه .. بل أغلى من كل ذهب الأرض بالنسبة لرجل يموت من الظمأ .

ولا شيء يعدل قطرة الماء فى تلك اللحظة .. إنها اللؤلؤ المذاب والماس السائل والياقوت الحر .. والجنة .

ويكاد العطشان يحس بطعم الماء يتسرب إلى كل خلية من خلاياه .. وكأن كل خلية تشرب على حدة وتنتعش وترقص وتترنح فى نشوة وتفيق من غيبوبة .

ولا نكاد نجد فى اللغة كلمة تعبر فى صدق وبلاغة عن طعم ذلك السائل الذى يقولون عنه كذبًا إنه بلا طعم وبلا لون وبلا رائحة.

بل إن طعمه أعجب الطعم.

وإن طعمه لهو طعم الحياة ذاتها. وطعم البعث والقيام من الموت ولهذا لا ندهش إذا قرأنا فى التاريخ أن الماء كان إلهاً يعبد فى الأديان القديمة.

أما العلم فيقول لنا إن الماء هو أعجب المركبات على الإطلاق فأكثر من ثلثى الجسم الحى بالوزن مؤلف من الماء.

وثلاثة أرباع سطح الأرض مغطى بالماء.

وعندنا ٣٢٥ مليون ميل مكعب من الماء فى المحيطات وجليد القطبين.. وثلاثة آلاف ميل مكعب من الماء معلق فى السماء على شكل بخار، و٢ مليون ميل مكعب من الماء فى جوف الأرض.

وبعض الكائنات تستطيع أن تعيش بلا هواء. ولكن لا يوجد كائن واحد حى يمكن أن يعيش بلا ماء.

والماء الذى تقول عنه الكيمياء إنه بلا لون وبلا طعم وبلا رائحة تعود فتصفه بأن له أعجب وأخطر الخواص فى دنيا المركبات.

• فجميع السوائل تنزل إلى تحت بالجاذبية إلا الماء فهو يصعد إلى فوق ضد الجاذبية «بالخاصة الشعرية»، وبهذا هيأته طبيعته ليصعد فى جذوع الشجر والنخيل والنبات إلى أى مدى من النماء.. ولولا ذلك

لما ارتفعت ساق خضراء فوق الأرض .

• وجميع السوائل تنكمش بالبرودة وتزداد فى الوزن إلا الماء ، فهو يتجمد بالبرودة ، ويخف فى الوزن .. ولذلك أمكن لصفائح الجليد البارد أن تطفو وتغطى مياه القطبين وتحفظ المياه تحتها دافئة « بالعزل » صالحة لحياة الأسماك والحيتان ، ولولا ذلك لماتت الحياة البحرية فى الشتاء وتحولت البحار إلى جمد مهلك .

• والماء بحسب تركيبه الذرى كان لابد له أن يتجمد فى درجة مائة تحت الصفر ويسيل فى درجة تسعين تحت الصفر ، هكذا تقول لنا علومنا الذرية .. وكان معنى هذا ألا يتواجد فى ظروف الأرض إلا على هيئة بخار .. ولكن الذى حدث أنه يتجمد فى الصفر ويغلى فى مائة ، وبهذا أمكن له أن يتواجد فى المكان الواحد من الأرض على هيئاته الثلاث ، بخار ، وسائل ، وصلب ، وهو أمر آخر حيوى كان لابد من توافره لتقوم على الأرض حياة .

• والماء هو السائل الوحيد الذى يملك قدرات خرافية على إذابة الأشياء والتفاعل معها .. فهو يأكل الحديد . والصخر .. ونصف المركبات المعروفة وجدت ذائبة فى الماء .

• والجزىء المائى كما يشرحه لنا علم الطبيعة الجزيئية هو الآخر جزىء خارق مدهش .. فالأكسوجين ملتحم بالأيدروجين على طريقة العاشق والمعشوق ، والذرتان داخل بعضهما فى بعض .. والألكترون

الوحيد فى ذرة الأيدروجين داخل فى ذرة الأكسوجين ، وله وظيفة فى مدارها .. مما أدى إلى استقطاب الجزىء استقطابًا كهربائيًا فأحد طرف الجزىء موجب « وهو الطرف الأيدروجينى » . والطرف الآخر سالب « وهو الطرف الأكسوجينى » .

وهذه الصفة العجيبة جعلت من الجزىء شيئًا أشبه بمغناطيس وجعلت الجزيئات تتماسك بشدة وتتجاذب كما تتجاذب عدة من المغناطيسات ، مما أدى إلى ظاهرة التماسك السطحى التى نسميها ظاهرة التوتر السطحى للماء Surface tention فيمكنك أن تضع شفرة حلاقة من الصلب برفق فوق سطح الماء فتطفو بسبب هذا التماسك السطحى الذى لا يسمح لشىء باختراقه . وتكهرب الجزيئات المائية هو الذى يفسر الخاصة الشعرية Capillarity وهى الخاصة التى يتسلق بها الماء إلى أعلى ضد الجاذبية ، والواقع أنه يتسلق بالجذب المغناطيسى بين ذراته وبين جدران الأوعية الشعرية . وبالتالى يجذب السطح المائى كله معه « لأن السطح كله متماسك » .

وهذه الصفات الكهربائية للجزىء هى السر فى قدرة الماء الخرافية على الإذابة .. لأن الطرف الموجب للجزىء يشد إليه الشق السالب من أى مادة ، والطرف السالب يشد إليه الشق الموجب فتنحل المادة إلى شقيها السالب والموجب ، وهو مانسميه بالأيونات السالبة والموجبة وتتأين المادة .. أو تذوب بلغتنا الدارجة .

* وربما كان أعجب ما فى الماء قدرته على خزن وتصريف الحرارة. وكلنا نعلم من خبراتنا العادية أن قضيباً ساخناً من الحديد يمكن أن يبرد فى ثوان على حين يظل الماء ساخناً فى البانيو ساعات قبل أن يعود إلى برودته.

وهى صفة تصبح حيوية جداً حينما نعلم علاقة تبادل الطاقة بين مياه المحيطات والشمس.

فالمحيطات هى الغلاية اليومية التى تسخنها الشمس فتتبخر مياه المحيطات بالحرارة وتصعد إلى السماء.. ثم إلى أعلى.. إلى أجواء السماء الباردة فتتكثف سحباً. ثم تهطل أمطاراً، ثم تسيل أنهاراً لتصب فى المحيطات من جديد.

دورة مائية يومية.

وتبلغ الطاقة الشمسية الحرارية المستخدمة فى هذه الدورة فى اليوم الواحد أكثر من كل ما أنتج الإنسان من طاقة خلال تاريخه كله.

والذى يقتنص هذه الطاقة ويحفظها ويصرفها ويوظفها هو جزىء الماء العجيب.

والماء يتبخر من المحيطات ثم يعود إلى المحيطات من جديد فى كم كلى ثابت لا ينقص ولا يزيد.. وهذه معجزة أخرى.. فمنذ ثلاثة آلاف مليون سنة منذ بدء الماء على الأرض وكميته ثابتة لا تزيد ولا تنقص.. وربما كان الماء الذى تصنع منه اليوم كوباً من الليمونادة

هو نفس الماء الذى استحمت به كليوباترة ، وهو ذاته الذى تمضمض به خوفو من آلاف السنين .

* والماء الذى اقتنص الطاقة من الشمس يعود فيصبح مصدرًا للطاقة وتنظيم الطقس .. ثم يعود فيصبح مصدراً للطاقة من باب آخر هو مساقط الماء والشلالات والقناطر والسدود .

* والماء هو النحات اليومى الذى يقوم بتشكيل القارات والشواطئ والسواحل ، ويقوم بحفر مجارى الأنهار وقيعان البحيرات ، وهو الرافعة السحرية التى تنقل الجبال وتمهد الوديان .

هذا مايقوله علم الطبيعة والكيميا والجيولوجيا عن الماء .. وماتراه العين المجردة من شأن الماء .

أما فى مجال البحث المجهرى وما يراه الميكرسكوب فى نقطة الماء فهو الأمر المدهش والمثير .

فنقطة ماء من مستنقع تحتشد فيها عدة آلاف من أصناف الأحياء وعدة ملايين من الكائنات الدقيقة من فيروسات وبكتريا وفطر وطحلب .. شعوب وممالك وأمم من الكائنات يأكل بعضها بعضًا وتتعايش وتتعامل وتتنافس وتتسابق .. وكل ذلك فى نقطة ماء من مستنقع على كوكب هو ذاته أصغر من هبأة فى الكون الواسع .

ليس عجيبًا بعد كل هذا أن نرى الماء مذكورًا فى القرآن فى ٦٤ موقعًا على أنه نعمة كبرى يمن بها الخالق على عباده .

(وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً) .

(ونزلنا من السماء ماءً مباركًا فأنبتنا به جنات) .

(وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) .

(وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه فى الأرض) .

(وجعلنا من الماء كل شيء حى) .

(خلق كل دابة من ماء) .

(خلق من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرًا) .

(أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) .

وفى أجمل الآيات يقول الله فى مبدأ الخلق : وكان عرشه على الماء .

وإذا اعتبرنا الآية تعبيرًا بالمجاز عن عظمة الماء وخطره فالمعنى واضح فقد رأينا أن الحياة كلها عبارة عن محلول مائى وأن الماء هو وسيط الفعل الإلهى فى المخلوقات جميعها فعرش الله وسلطانه وقبضته تتم كلها من خلال الماء .

أما إذا وقفنا عند الحروف واعتبرنا المعنى لغزًا مما لا يعلمه إلاَّ الله .. فإنه منتهى التشريف أن يجىء ذكر الماء مقترنًا بالعرش الإلهى وهو تشريف قد رأينا أسبابه .

ألم نجد فى نقطة الماء الواحدة أممًا وشعوبًا وقبائل وملايين الخلائق

مما لا ترى العين .

ألم نجد في جزىء الماء البسيط معجزة تركع أمامها علوم الكيميا والطبيعة والجيولوجيا وتحار فيها عقول العارفين .

هذا الجزىء الذى يخزن الطاقة ويفجر الحياة ويذيب الصخر وينحت القارات وينظم الطقس . هذا اللؤلؤ المذاب والماس السائل الذى يجرى على حلق العطشان أحلى من القبل وأعذب من صرافة الخمر .

حقًّا .. ما أحفل هذه الكلمات القليلة بالأسرار حينما ترتلها القلوب وتتأمل العقول .

(وكان عرشه على الماء) .

عالم الأسرار

ما أعجب تلك النفس التى فى داخلنا .

فيها من النار « الشهوة والجوع والغضب والحقد والحسد والغل » .

وفيها من النور « العفو والتسامح والحلم والفهم والحنين إلى النور الأعظم الذى جاءت منه » .

فيها من الطين « الآلية والتكرار والجمود والرتابة والقصور الذاتى والخمول والكسل والعجز عن التغيير والتثاقل والتهابط » .

وفيها من الروحانية « الانطلاق والحرية والشفافية والابتكار والخلق والإبداع والخيال والجمال » .

وهى لا تولد نارية ولا نورية ولا طينية ولا روحية ... وإنما تولد بمجرد إمكانية قابلة للصعود أو الهبوط إلى أى من هذه المراتب .

وإذا تأمل الواحد منا نفسه فى موضوعية شديدة ونظر إلى باطنه فى حياد مطلق فإنه يلاحظ أنه فى حالة تذبذب دائم بين هذه المراتب صاعدًا وهابطًا من لحظة لأخرى ومن يوم لآخر ، من حالة وجدانية إلى حالة عقلية إلى حالة شهوانية إلى صفاء روحانى .

والصوفيون يسمون هذه المراتب بالمقامات ...

وقليل جدًّا هم الذين يستطيعون الاستقرار والدوام فى المقامات الروحية دون أن تشدهم جذبات الشهوة والجوع وأحقاد الحياة المادية وأطماعها .

وكثير جدًّا هم الذين يستقرون فى المراتب السفلية حيث الحياة شهوة ومضاجعة وأكل وشرب وحيث لا هموم إلاّ هموم البطن والفرج .

ويبقى بعد ذلك أوساط الناس ممن يتأرجحون بين النار والنور بين جذبات العلو وجذبات التسافل ينتشلون أنفسهم من إغراء ليقعوا فى آخر .

ولأن الشيطان مخلوق من النار فلا مدخل له على الإنسان إلا إذا تهابط إلى المرتبة النارية من نفسه « وهى مرتبة الشهوة والجوع والغضب والحقد والحسد والغل » حينئذ يمكن أن يتم التواصل بين الاثنين بحكم المجانسة .. فيستطيع الشيطان أن يوصل إلى الإنسان وسوساته وأن يؤجج شهواته ويشعل غضباته .. ولكنه يظل معزولا عمن هم فى

المراتب الروحية العالية بحكم عدم التجانس فهو لا يستطيع أن يوصل إليهم وسوسته .

ولهذا يقول الله تبارك وتعالى فى القرآن للشيطان :

(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) .

لأنهم ارتفعوا إلى منطقة يستحيل فيها التواصل وخرجوا من نارهم الكثيفة إلى أرواحهم اللطيفة .. حيث لا يسمع إلا رفيف الملائكة وإلهامات الأرواح العالية .. وحيث يصبح نفث الشيطان أكثف من أن يصل إليهم .

ولغز النفس الإنسانية هو فى قابليتها لتمثل هذه الأدوار وقبول هذه المراتب المتفاوتة علوًّا وسفلا .

يقول الله تعالى عن هذه النفس (.. فألهمها فجورها وتقواها) .

ويقول فى كتابه الكريم عن قصة خلق آدم :

(وعلم آدم الأسماء كلها) .

ويفسر الصوفيون ذلك بأن الله جعل نفس آدم قابلة لتجليات الأسماء الإلهية .. فالإنسان يمكن أن يكون « الجبار » ويمكن أن يكون « الرحيم » ويمكن أن يكون « المنتقم » ويمكن أن يكون « العفو » وهذه كلها أسماء إلهية .. ولكنه أيضًا يمكن أن يخرج عن هذه الأسماء الإلهية ويهبط إلى درك الأوصاف الشيطانية فيكون اللعين والرجيم والمطرود والمحجوب ويمكن أن يهبط إلى درك الأوصاف الحيوانية

ويمكن أن يهبط إلى غلظة الجمادات وإلى برودة الصخر الأصم .

وهكذا خلق الله لآدم نفسًا قابلة للتصور فى جميع صور الكائنات .. من أعلاها إلى أسفلها .

ويقول الصوفيون فى هذا : إن الإنسان هو الكتاب الجامع والكون هو مجرد صفحات من هذا الكتاب . أوسطور منه ... فما الأرض والسماوات إلا صفحات من كتاب جامع هو الإنسان الذى يستطيع أن يجمعها جميعًا ...

ولهذا أمر الله الملائكة بالسجود لهذه النفس العجيبة التى سواها ونفخ فيها من روحه ، لتكون قابلة لأن تسع الكون بجميع صوره ومراتبه ودرجاته .. وأخذ على نفسه العهد بتربية هذه النفس وهدايتها وجذبها إليه وتأديبها باللين والمكافأة وبالشدة والتعذيب .. بالرسل وبالكتب وبالمصلحين والهداة .. وبالنذر والكوارث والآلام الماثلة .. إن لم تنفع الهداية .

وقال فى كتابه :

(يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه) .

كلنا كادحون إلى الله زحفًا .

كلنا ساعون إليه طوعًا أو كرهًا .. بالنار وبالألم والدروس القاسية والتنكيل .. أو طوعًا واختيارًا وحبًا وكرامة .. ولن يستطيع أحد أن يخرج عن الصف .. ولا أن يخرج عن الاتجاه ، فلا يوجد إلا اتجاه

واحد .. وهو السير إلى الله ..

(إلى الله المصير) .

(وإليه يرجع الأمر كله)

(ألا إلى الله تصير الأمور) .

(وهو خلقكم أوّل مرة وإليه ترجعون) .

والعبيد هم الذين يسيرون إليه بالضرب والنكال والعصا ، والعباد الأخيار هم الذين يسعون إليه حبًا وشوقًا واختيارًا ، ولا يوجد إنسان ملحد بحق .. آبق عن الطريق .. فالكل على الطريق .. والملحد هو مجرد رجل منكر جاحد معاند لا يدرى ماذا يُفعل به ، ولكنه فى الحقيقة سائر على نفس الدرب بالعصا والكرباج شأنه شأن أمثاله من العبيد حقراء الشأن ، ممن اختاروا ألاّ يكون لهم اختيار .. وتصوّروا أنهم اختاروا الحرية .. والحقيقة أنهم اختاروا أن يصكوا على أدمغتهم وقد طبع على قلوبهم وغشى على أبصارهم ، فصاروا كبهائم السواقى .. تتصور أنها تمرح فى الشمس والحقيقة أنها مغلولة إلى السواقى ، تعمل راغمة فى مقابل حزمة البرسيم .

وفى هذا الجذب الإلهى للجميع منتهى الرحمة واللطف والحب والمودة .. فهو سبحانه حريص على إخراج الكل من الظلمات إلى النور ثم إلى الحضرة الإلهية عنده .. الكل واصل فى النهاية بفضل الله ورحمته التى وسعت كل شىء ..

ولكن البعض منا سيطول طريقه .. مارًّا بنار الدنيا ونار الآخرة وهؤلاء هم المجرمون والمعاندون .. والبعض سيصلون إلى الحضرة الإلهية وهم فى حياتهم الدنيوية كما فعل محمد عليه الصلاة والسلام فى الإسراء والمعراج حينما أصعده الله من فوق سبع سموات .. لأنه أهل للتشريف والتعظيم .. والشريف العظيم لا يجوز له أن ينتظر طويلا بالباب قبل أن يأذن له الملك وإنما يجب أن تفتح له الأبواب ويتلقى بالأحضان .

هى رحلة الأبد والأزل من بداية خلق الأرواح فى الملكوت إلى التنزل فى الأرحام إلى الحياة الدنيا إلى الموت إلى عالم البرزخ إلى قيام الساعة إلى الآخرة إلى ما بعد الآخرة مما استأثر الله بعلمه .

وهى أسرار يستمع إليها البعض فى رهبة ، ويبتسم لها البعض فى غفلة ، ويهزأ بها البعض فى جهالة .. ويقول هل هنالك حقًّا شياطين ، ويؤمن بذرة لا يراها وإلكترونات لايعرف عنها إلا آثارها .. وآثار الشياطين فى حياته أكثر وضوحًا من آثار الإلكترونات .. وهى حقائق عند أهل الحقائق ممن لهم حظ فى معرفة هذه الأشياء ذوقًا وشهودًا ، وممن كشف عنهم الغطاء فرأوا ما لا يرى وسمعوا ما لا يسمع .

والعاقل العليم من دعا الله أن يهديه إليه شوقًا واختيارًا لا قهرًا وإجبارًا ، فيكون مثل السادة الأشراف لا مثل العبيد حقراء الشأن الذين يصكون على أدمغتهم ،وقد طبع على قلوبهم وغشى على

أبصارهم فتصوروا أنفسهم من أهل الشطارة وهم من أهل الخسارة ..
وتصوروا أنهم اختاروا ، والحق أن شيطانهم هو الذى اختار لهم سوء
الدار وسوء القرار .

الأصنام

نحن نقول إننا فى عصر العلم وإننا خلفنا الجاهلية وراءنا بأصنامها وأوثانها .. ولم يعد هناك من يعبد اللات والعزى وهبل ولا من يسجد لبعل .. انتهى الشرك إلى غير رجعة .

ولكنى أقول بل نحن عبدة أوثان نسجد ونركع ونحرق البخور ونرتل التسابيح والابتهالات فى كل لحظة لأصنام لا حصر لها .

نحن فى الجاهلية بعينها ولو تكلمنا بلغة الإلكترونات .. ولو مشينا على تراب القمر .

إنما اختلفت أسماء الأصنام .. واختلفت صورها ونوعياتها .. وتسترت تحت ثياب الألفة .. ولكنها هى الأصنام بعينها .

ماذا يكون جسد المرأة العارى اليوم .. وهل هو إلا صنم رفعناه إلى

مرتبة الإله المعبود المعشوق المرتجى .

لقد أصبحت صورة الجسم العارى ماركة مسجلة نروج بها أى بضاعة .

صورة المرأة العارية هى تعويذة التاجر التى يرسمها على إعلانات السجائر ، وإعلانات الخمور والصابون والبيرة والكاميرات والساعات والحراير والأقمشة حتى أدوية الزكام وشفرات الحلاقة ومعاجين الأسنان .

وهى عامل مشترك فى كل أفيشات السينما والمسرح . وهى على أغلفة المجلات وعلى كروت المعايدة وفى جميع الفاترينات بمناسبة وبدون مناسبة .

وهى على علب الشيكولاتة وعلب البونبون وزجاجات العطر ، ونجدها بدون سبب فى إعلان لتروس الماكينات .

ونفاجأ بها فى إعلان سيارات تفتح لنا الباب ، وفى طائرات س م ع تقدم لنا طبقًا من الجاتوه مع ابتسامة . وإلى جانب مطحنة بن تقدم لنا فنجانًا من القهوة .. بل فى إعلان عن أسياخ الحديد الصلب تدعونا لنبنى بيتنا الجديد .. وهى دائمًا عارية أو نصف عارية أو بالمايوه وعدسة الكاميرا مركزة على النهر بين الثديين .

وكأنما لا وسيلة لجذب الانتباه إلا باستخدام هذا المعبود الجديد .. ولا طريقة لشد العين إلا بالتلويح بهذا الوثن .

إنه الذكر والابتهال والتسبيح العصرى ، تسفح فيه الدموع وتنشد الأشعار وترتل المزامير والأغانى والرباعيات والسباعيات ، وتؤلف المسلسلات والحلقات كل حلقة تشحذ الذهن وتثير شهية المستمع والمتفرج لرؤية اللحظة الفاصلة .. لحظة تخلع البطلة عذارها وتلق ثيابها وتكشف عن المعبود المنشود .

أما الصنم الثانى أو لعله المعبد أو الكاتدرائية العظمى أو الكعبة أو جبل الأولب الذى يتجمع فيه حشد الآلهة العصرية ، فهو فاترينة البضائع الاستهلاكية التى تتحلق حولها العيون مشدوهة مبهورة مسبحة ، تكاد تركع للثلاجة والريكوردر والتليفزيون والساعة الذهبية والسوار الماسى . والابن يقتل أباه والأخ يسرق أخاه ، والموظف يختلس والصانع يغش والصراف يزور ، والمزيف يزيف فى سبيل هذه الفاترينة الوهاجة .. فاترينة الأحلام .. الكل يتهجدون ويسهرون الليل يصلون لها .. وكل شىء يفنى ما عدا وجهها ذى الجلال والإكرام المضاء دائماً بالنيون والفلورسنت فى حى المال والتجارة من كل مدينة .

أما الصنم الثالث فهو الهيكل .. هيكل الفكرة المجردة والنظرية والمذهب السياسى الذى يركع فيه المريد المتعصب . لا يرى حقًّا إلا ماتقوله بنود نظريته ، ولا يرى صدقًا إلا ما يأمر به مذهبه ، فإذا سمع من يتكلم عن مذهب آخر فهو خائن مارق فاسق يستحق أن يحرق حيًّا .. وهو يعيش بفكر مقلوب ومنطق معكوس ، فالإنسان عنده

يجب أن يوضع فى خدمة النظرية لا النظرية فى خدمة الإنسان.

وهذا هو عابد الصنم الأجرف المجرد وعابد قصاصات الورق والشعارات الطنانة الكاذبة .. وهو أحد مجانين هذا الزمان.

وصنم آخر شائع هو الدكتاتور والحاكم المطلق والطاغية المستبد الجالس على عرش السلطة ، ومن حوله بلاط المتافين والمصفقين وحملة المباخر والمجامر والمسبحين بالحمد ، والمنافقين والكذابين وقارعى الطبول ونافخى الأبواق . تزفه الأناشيد والأهازيج فى كل مكان .. ويلقن الأطفال فى مدارسهم .. إنه الرزاق سبحانه والمنقذ والمعين الذى يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف ويكسوهم من عرى ، وإن عليهم أن يتوجهوا إليه بالتسبيح والتحميد كل صباح .. وإن عليهم أن يحفظوا كلماته ويعوا وصاياه ويلتمسوا رضاه.

وربما كان أشيع أصنام هذا العصر وأكثرها انتشاراً هو صنم « الذات » .. عبادة النفس .. واتباع الهوى.

المرأة التى تعبد جمالها .. والرجل الذى يعبد أناقته .. والممثل الذى يفتتن بشهرته . والفنان العابد لفنه .. والبطل المبهور ببطولته .. والمتحدث اللبق الذكى المعجب بنفسه وبذكائه . ونجم السهرة المزهو بشخصيته .. وصاحب الملايين الفرحان بملايينه.

والمال فى أكثر الأحوال وفى هذا العصر المادى صنم فى ذاته تقدم له القرابين من دم الجميع.

وقد يختفى صنم « الذات » وراء صنم أكبر هو « العصبية » للعائلة أو القبيلة أو الطائفة أو العرق أو العنصر أو الملة وكلها أصنام .. وكلها عبوديات .. وكلها شرك .

وعابد الله لا يكون عبدًا لله إلا إذا تحرر منها جميعًا وأسلم قلبه ووجهه خالصًا من جميع الشواغل والعلائق والتبعيات والمنازعات .

القلب لله « بلا منازع » .. هذا هو الدين .

أما ما نحن فيه فهو جاهلية .. جاهلية العلم .. التى جاءت بأصنامها الجديدة ، ونصبت أوثانها العصرية ، وأقامتها مكان اللات والعزى وهبل وبعل ، وأقامت لها الهياكل ووظفت لها السدنة والكهان وقدرت لها النذور والقرابين .

ولو أننا جلسنا إلى أنفسنا وصارحنا أنفسنا فى لحظة صدق لوجد أكثرنا نفسه فى إحدى خانات عباد الأصنام يسبح دون أن يدرى لوثن من تلك الأوثان الخفية التى أقامها عصر المادة فى قلوب الناس .

الحب والعداوة

الصحبة السعيدة فن ..

والمعاشرة الحلوة موهبة واقتدار ليس لكل واحد حظ فيه .. ويخطئ من يظن أنه يمكن أن يحقق السعادة بقراءة كتاب أوتطبيق منهج ، فالسعادة لا توجد فى كتب وإنما هى منحة الطبائع النقية والفطر السليمة والبصائر النيرة ، وهى ثمرة أخلاق وليست ثمرة علم .

وأكثر مانقرؤه فى الكتب عن الحب الأمثل والزواج النموذجى والصداقة الناجحة محض أكاذيب .. وبعض هذه الأكاذيب شائع جداً وهو من كثرة ما تردد على الألسن أصبح فى مرتبة الحقائق .

من هذه الأكاذيب الشائعة أكذوبة اسمها « الاندماج » ..

إن اندماج الاثنين فى واحد هو أكبر الشواهد على عمق الحب

وحسن الصحبة وسلامة المعاشرة .

وهى كذبة عظيمة وثمرة تطبيقها نكبة مؤكدة وكارثة ليست فى الحسبان .

أولا لأن الاندماج مستحيل ولا يمكن لاثنين أن يصبحا واحدًا إلا بمجوعة من الإجراءات التعسفية نهايتها المحتومة هى التعاسة .

ورجفة القبلة واستسلام العناق وإغماءة الفراش التى نتخذها دليلا على حلاوة الاندماج . ليست فى حقيقتها إلا حالة فسيولوجية عابرة ، طولها فى عمر الزمن ثوان يسترد بعدها كل واحد كينونته وفرديته واستقلاله .. وأى محاولة للدمج بعد الصحو من تلك اللحظات تكون فى حقيقتها عدوانًا من كل من الطرفين على استقلال الآخر وفرديته ، مثل ما يحدث من التجسس على الخطابات والتصنط على التليفونات وتفتيش الجيوب وشق الدماغ لمعرفة ما فيها بحجة أنه لا يجوز أن يكون الاثنان اثنين وإنما يجب أن يكونا واحدًا لا أسرار ولا خفايا ولا خصوصيات .. واللى فى جيبى فى جيبك .. واللى فى بطنى فى بطنك .

وينسى الذين يروجون هذا الكلام أن انتهاك الخصوصيه والشخصانية والفردانية هو أسوأ أنواع العدوان وهو أشبه باقتحام المجال الجوى أو التسلل إلى أرض مقدسة أو انتهاك الحرمة .

وقداسة الشخصية الإنسانية هى فى استمرارها واستغلالها ، فإذا

افتضحت انتهت وسقطت هيبتها واستنفدت بذلك العلاقة الإنسانية أغراضها .. ومايلبث بعدها أن يتحول الاثنان إلى ألد الأعداء .

لابد من احترام المسافة التي تحفظ لكل فرد مجاله الخاص وكينونته الخاصة كإنسان مستقل له الحق فى أن يطوى ضلوعه على شيء .

وأمهاتنا كانوا ينادون أزواجهن بإضافة ألقاب ونعوت ، فكانوا يقولون ياسي محمود أو ياسى حلمى ، وكان الزوج يقول لزوجته يا أم إبراهيم يا أم حسن .. وكانت تلك الألقاب تحفظ المسافة وتحفظ للعلاقة احترامها .. ولم يكن رفع الكلفة فى الفراش يعنى رفعها إطلاقاً فى كل ساعة .. وهو سلوك فطرى سليم ، لأن رفع الكلفة إطلاقاً فى علاقات اليوم أصبح يتداعى إلى التخاطب البذيء وإلى التفاحش فى الألفاظ بحجة رفع الكلفة والصراحة .. وهذا بدوره يؤدى إلى حالة من افتقاد البراءة والامتهان المتبادل والسوقية والابتذال ، ثم تنتهى الحياة المشتركة إلى حالة من العرى والسخف الذى لا يطاق .

وحفظ المسافة فى العلاقات الإنسانية مثل حفظ المسافة بين العربات أثناء السير فهى الوقاية الضرورية من المصادمات المهلكة .

ومايتصوره البعض اندماجاً يولد فيه الحبيبان هو فى واقع الأمر تصادم مهلك يهلك فيه الاثنان ، فلا يمكن أن يصبح الاثنان واحداً إلا بعمليات بتر وتمزيق وزرع أعضاء .. وتكون النتيجة أن يرفض كل جسم العضو المزروع كما يحدث فى حكايات زرع القلوب ويموت الاثنان .

والله خلق كلا منا فرداً مفرداً فريداً منفرداً ونسيجاً وحده .. وكل منا يولد وحده ويمرض وحده ويتألم وحده ويشيخ وحده ويموت وحده ويلقى الله وحده ويحاسب وحده .

(ذرني ومن خلقت وحيداً) [المدثر — ١١]

(وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) [مريم — ٩٥]

الفردية هي حقيقتنا .

والتعاطف والمشاركة الوجدانية والمواساة شيء غير الاقتحام والغزو والإدماج .

التعاطف هو الحياة معاً .

والاندماج هو أن يقوم أحد الطرفين في أنانية بالتهام الآخر وهضمه واستيعابه والاستيلاء على مخصصاته وخصوصياته .

والحالة الأولى إنسانية والثانية جريمة واستغلال ونفوذ وأعجب مايحدث أن نجد امرأة تحاكم رجلها على ماضيه قبل أن يلتقي بها ويعرفها وكأنها تملكه من يوم ميلاده وكأنما يمتد عقد الملكية بأثر رجعي .

وهي تسمى ماتفعله حباً .. والحقيقة أنه منتهى العدوان وسوء الخلق .. تماما مثل الغيرة التي تسوقها على رجلها بدعوى الحب وهي في حقيقتها ذريعة للتسلط والحجر والتملك والحصار .

والإنسان السوي في حاجة دائماً إلى لحظات انفراد مع نفسه وخلوة مع فكره .. وهي لحظات عزيزة لديه لا يحب أن يقتحمها عليه أحد ..

ولذا كان الفراش المنفصل وغرفة النوم المنفصلة بالنسبة للأزواج أحيانًا ضرورة .

ومن الأخطاء الشائعة التي نغنيها ونرددها .. أن « الشك يحيي الغرام ويزيد في نار الأحبة »

هكذا تقول الأغنية التي يغنيها عبد الوهاب .

وهكذا يتصور الأولاد والبنات .

وهكذا يعاملون بعضهم بعضًا .

ولكن خريطة الواقع واستقراء الشواهد في كل بيت تقول إن هذا الحب .. « حب الغيرة والشك والأثرة » .. ينتهي دائمًا إلى فشل .. ثم يتحول إلى جحيم العداوة وليس إلى نار الأحبة .. والسر في ذلك أنه بدأ عداوة ولم يبدأ حبًا .. وأنه كان العداوة بعينها من أول لحظة .. لأن الذي يحب إنسانًا لا ينتهكه ولايلغ في أحشائه ولا يفكر في أن يكسر دماغه ليعرف ما فيها ولاينظر إليه باعتباره أرض وقف .. وإنما ينظر إليه كإنسان حر له خصوصيته واستقلاله وكينونته .. وهو لايحاول أن يغزو أرضه أو ينتهك مجاله وإنما يحاول أن يضيف إلى أرضه أرضًا جديدة وإلى مجاله الحيوي اتساعًا جديدًا .

ولكنا نعود فنقول إن هذه المسائل مردها في النهاية إلى الأخلاق وليس الثقافة .. إلى الطبع وليس المدرسة .. فالطبع السمح الكريم هو الذي يشع السعادة والحب من حوله لأنه طبع معطاء وهاب بطبيعته ،

أما الطبع الشرير الأنانى فهو طبع مناع مستغل لص لا يفكر منذ البداية إلا كيف يأخذ وكيف ينهب وكيف يسطو؟

وخلاصة القول أن المرأة السيئة حبها هو السوء بعينه ولو تصورت أنه الغرام الذى ليس بعده غرام ولو انتحرت دونه ولطمت الخدود وقبلت التراب.

ثم هناك المرأة الأخرى التى تريد الرجل وترفض مشاكله وتطلبه لنفسها معقمًا مستخلصًا مستقطرًا من مصادره مثل العطور لا أثر فيه لأى شائبة من ظروفه .. مع أن الرباط الإنسانى فى معناه الحقيق هو التبنى، والدليل الوحيد على علاقة المرأة برجلها هو تبنيها لمشاكله .. أما أن تحاول تقشيره لتلتقى بالقشر وتأكل اللباب، فهو لون آخر من الأنانية ومن الشخصية الاستمتاعية الاستهلاكية التى تريد أن تأخذ ولا تعطى.

والعلاقة الإنسانية لا يمكن اختزالها إلى نزهة على النيل وهمسات نجوى، وإنما هى تتضمن حمل تبعة وتبنى مشكلة، وكل تعارف بين اثنين يتضمن قبول مخاطر، وعلى من يرفض المخاطر أن يغلق عليه بابه ولا يدعى صداقة بأحد، فالصداقة هى الأخرى تبعة .. وكلمة الحب وكلمة الصداقة دعوى.

والله لا يتركنا ندعى أى شىء إلا ويمتحننا فيه، بأن يضعنا أمام مخاطر الكلمة ومخاطر التبعة .. فيطالبنا بثمن الصدق إن كنا

صادقين .. والله يمتحننا فى ظاهرنا وباطننا ويمتحن جواهرنا وقلوبنا وأفعالنا .

وربما كانت أشيع خطايانا هى الجزافية فى التعبير .. الجزافية فى التعبير عن الحب .. والمبالغة فى كلمات الإعجاب .. والإسهال فى لغة الصداقة .. والغلظة فى الخصومة .. والحدة فى الإدانة .. والترخص فى الاتهام .. والتجاوز فى التجريح .. وكلها كلمات نطلقها بلا تحسب فتتحول بعد خروجها إلى طاقة مجنونة لاسلطان لنا عليها .. فتدمى قلوبًا وتفصم روابط وتزلزل نفوسًا .. وينكر الأخ أخاه والحبيب حبيبه .. ولا يعود كل منا هو هو .. وننظر إلى بعضنا البعض كأننا غرباء افتقدوا الألفة .

وإذا بصديق الأمس « الإنسان النادر » قد أصبح خصيم اليوم « الإنسان الرخيص » المهلهل السيرة .. لمجرد تباديل وتوافيق فى لعبة الكلمات وتباديل وتوافيق فى الأشخاص .. وبلا حجة سوى حجة القلوب التى تتقلب مع هوى اللحظات .

ويهمس الواحد فى نفسه .. لا أصدق أنها هى هى التى تتكلم .. مستحيل .. هذه امرأة لا أعرفها تكلم رجلا آخر لا أعرفه .

وكان أكثر احترامًا لنا أن نراقب أنفسنا فى الكلمة التى نطلقها حتى لا تستهوينا لذة العبارة ، وحتى لايسرقنا سحر الألفاظ فنتبادل حبًّا هو عداوة ونزاول عداوة هى حب ونغرق فى مكالمات هى ترف ويلوذ الواحد منا بالآخر فيطمئن إليه وهو لواذ القلق بالقلق ، ولكن خيمة

الألفاظ الخائبة هى التى نشرت هذا العطر الخادع المخدر للحواس فأوحت للاثنين بأن كلا منهما قد وجد السكن وما هو بسكن ، وإنما هو مجرد محطة استراحة من لهاث الحياة العقيم .

والكلمة شيء خطير .. وهى أشبه بالشحنة تنطلق من الشفتين كالرصاص فتصيب وتجرح وتهدم وتخرب وتحمل مع حروفها العذاب الذى لا شفاء منه .

والله خلق الدنيا بكلمة ..

والمسيح كلمة ..

وتقوم الحروب بكلمة وتضع أوزارها بكلمة .

وتقوم الساعة بكلمة وتنهد السموات بكلمة .

فالكلمة شيء كالسحر كالطلسم .. وهى إذا انفصمت عن الفعل أصبحت عبثا وإذا تناقضت مع الفعل أصبحت نفاقًا .

فما أحلى الصمت ؟

اللهم اجعل لى صمت الجبل يحمل فى أحشائه البركان وهو صامت .. ويحمل فى باطنه الزلزال وهو هادئ ، ويحمل فى جوفه الذهب والبلاتين والماس ويبدو متواضعًا بفرش نفسه للفقراء والبسطاء .

اللهم اجعل مكالماتى معك وحدك ، فأنت وحدك الذى تعلم ولا تظلم ولا تتبدل عندك الأقوال والأحكام ولا تضيع عندك محبة .

ساخطون بلا مناقشة

السخط والرفض والتذمر والاحتجاج على كل شىء أصبح موضة اليوم بين الشباب .

أحيانًا يكون الاحتجاج على الآباء .

وأحيانًا على الحكام .

وأحيانًا على النظام الاجتماعى .

وأحيانًا على الكون كله .

وأحيانًا على الله سبحانه .

كلمة لا .. بدون تميز .. بقضية وبلا قضية بهدف وبلا هدف ..

وأحيانًا لا .. للنظافة .. ولا للقيم والأخلاق .. ولا .. للعمل .. ولا .. للواجب والمسئولية والنظام .

والنموذج الجديد لهذه اللاثية المتطرفة هو مجتمع الهيبين الذين يتناكحون على الأرصفة ، ويمارسون الشذوذ الجنسي ويتسولون ثمن زجاجة بيرة ،ويشتركون فى كل إضراب ، ويهتفون فى كل مظاهرة ، ويبصقون على كل شىء .. ويتصورون أنهم طلائع الحرية وأنهم أول من خرج من أقفاص الإنسانية .. والحق أنهم خرجوا فعلا من أقفاص الإنسانية ولكن ليدخلوا فى أقفاص القرود .

وكلمة لا .. كانت من أشرف الكلمات حينما قالها محمد ﷺ لجاهلية زمانه لأنها كانت كلمة تحمل معها النور والحق والعدل والخير .

كانت لا .. أشادت أمة من عدم .

كانت لا .. معها رؤية جديدة وكتاب وطريق .

لم تكن معولا يهدم وإنما كانت يدًا تبنى وشعاعًا يهدى . ونحن جميعًا مندوبون لنقول لا .. للظلم .. ولا للباطل .. أما لا على وجه الإطلاق .. الثورة للثورة والسخط للسخط .. الخروج من ظلم إلى ماهو أظلم .. الخروج من خطأ بنشدان الفوضى .. تهديم كل شىء بدون رؤية .. هذه الصرخة الجديدة التى تتردد الآن فى جنبات العالم هى دسيسة دست على شبابه .. ومن ورائها عقول ماكرة تعمل فى خفاء وذكاء لإفساد كل شىء .

فى الفن فى الفكر فى الفلسفة فى السياسة فى الرواية فى الموضة فى

السينما يمكن أن تلمس هذه الأيدى الخفية .. وهذه التيارات الخبيثة للتهديم .

غياب الصورة الإلهية من الرواية والقصة .

تلك الروايات التى نراها على الشاشة أو نقرأها وكأنها الكوابيس .. ونعيش فيها ساعات ثقيلة مظلمة وكأننا فى عالم بلا إله .. ونخرج بحالة من الشك والضياع والتوهان ونحن نلعن كل شىء .

دوران الأفكار الروائية فى فلك واحد حول الجنس والخيانة واللامبالاة والانحلال وطلب اللذة بأى ثمن بهدف تحطيم روابط الأسرة .

إشاعة الإباحية باسم تحرير العواطف .

إفساد الفطرة بالتركيز على الجريمة والشذوذ .

تملق الغوغاء وتحريض الطبقات باسم الثورة والتقدمية .

استخدام الأسلوب الجميل والطرافة والإمتاع كغلاف من السيلوفان الجذاب لترويج أسوأ المضامين وأردأ البضائع الفكرية .

فكر سارتر الذى يحمل معه كل من يعتنقه إلى حالة من الغثيان والقىء والعبثية والإحساس بعدم الجدوى ، وبأن الإنسان قذف به فى الكون وترك وحده بلا عناية وبلا رعاية .

فكر فرويد الذى يحمل قارئه على الاعتقاد بأن الإنسان مجرد غرائز جنسية هائجة تبحث عن الإشباع فى النوم واليقظة وفى الطفولة

والشباب والشيخوخة .. وبأن أشرف ما أبدع الإنسان من فنون وآداب قد خرج من أعضائه التناسلية ، وبأنه حيوان يغلف شهواته بالمبررات الكاذبة . ولكنه حيوان من مولده إلى موته .. التخريب فيه غريزة والتهديم غريزة والموت غريزة .

وعلى نهج فرويد فى تفسير سلوك الإنسان بالحوافز الجنسية سار الفكر المادى الماركسى فى تفسير سلوك التاريخ بالحوافز المادية .

ثم جاء هربت ماركوز ليستفز الشباب إلى حالة رفض مطلق وثورة مستمرة لتفجير المجتمع بعد أن تكاسلت البروليتاريا عن تلبية نداء الفكر الماركسى لتهديم البنيان الاجتماعى وأخلدت إلى الترف وإلى رشوة الراحة والبقشيش السخى الذى قدمته إليها الرأسمالية الغربية .

وليست مصادفة أن رواد تلك الأفكار المادية كانوا جميعًا من اليهود ..

ثم سؤال على الهامش .

هل صحيح أن النظر المنصف إلى الوجود وتأمل الحياة فى موضوعية يؤدى بالإنسان إلى حالة من الغثيان والقيء والعبثية والإحساس بعدم الجدوى ، ويخلف إحساسًا بأن الإنسان قذف به فى الكون وترك وحده بلا عناية ؟

وهل صحيح أن الإنسان يدور فى فلك أعضائه التناسلية ؟

وهل من الممكن تفسير جميع مراحل التاريخ بالصراع الطبقى ؟

وماذا نقول فى الصراع بين روسيا والصين وكلاهما نظام واحد وكلاهما بروليتاريا .. وصراعهما مع ذلك يشكل التاريخ ؟

وماذا نقول فى فدائى يموت فى فيتنام أو القدس هل هو يدور فى فلك أعضائه التناسلية .. وهو الذى يضحى بجسده كله فى سبيل حق مجرد ومثاليات صرفة ؟

أما خرافة الغثيان والقيء والعبثية .. فهى عبثية عند سارتر وحده وقيء خارج من مناخ نفسى وحالة باطنية يعانيها هو .. أما الكون فهو برىء من العبثية منضبط أكثر من ساعة إلكترونية سواء نظرنا إلى الذرة وهى أصغر ما فيه أو إلى المجرة وهى أكبر عوالمه .

فى الذرة لايستطيع إلكترون أن ينتقل من مدار إلى مدار إلا إذا أخذ أو أعطى شحنة تساوى حركته من النواة أو إليها .

وهذا هو حال الإلكترون الذى لايعرف له جرم من فرط صغره .

وفى المجرة العظيمة تولد الشموس وتشب وتشيخ وتموت وتتحرك فى أفلاك وتدور حولها الكوكبات ، كل هذا يجرى فى دقة ونظام وفقاً لهندسة مقدرة وقوانين ثابتة لا تخرق .

أما الإنسان فلم يقذف به إلى الكون بلا عناية ، بل العكس هو الصحيح .. فالعناية الإلهية حفت به من لحظة ميلاده .. بل من لحظة تكوينه فى رحم أمه .. فالعناية سلحته بجميع وسائل الدفاع التى يحتاجها . سلحته بالسمع والبصر واليد والعضل والحيلة والذكاء والعقل .

وفى المخ وحده عشرة آلاف مليون خط عصبي تنقل الإشعارات وردود الأفعال طول الوقت بلا خطأ وبلا عطل .

وفى الكليتين والرئتين والكبد زيادة وافية فى النسيج العامل تبلغ سبعة أضعاف الحاجة .. وهذه الزيادة هى الاحتياطى « الاستبن » الذى وهبته العناية الإلهية لمواجهة الأعطال والطوارئ المحتملة .

ويموت فى الساعة من جسم الإنسان ستون مليون خلية تتجدد فى نفس الوقت فى تلقائية ودقة ونظام بديع ..

وفى الخلية الواحدة التى تبلغ فى صغر حجمها واحدًا من ألف من المليمتر .. فى داخل هذه الخلية الدقيقة نرى بالمجهر الإلكترونى مصانع ومخازن وجهازًا لتوليد الطاقة « وأرشيف » ومخًّا آليًّا لتنظيم هذه الأنشطة المختلفة .. كل هذا داخل صندوق هو جزء من ألف من المليمتر .

إن لم يكن هذا هو منتهى العناية من الخالق فماذا يكون ؟ وماذا يكون كلام سارتر عن العبثية فى الوجود وعن الإنسان الذى قذف به فى الوجود بلا عناية ؟ إلا الجرأة على الحق بعينها وإذا كان مراد سارتر بالعبثية هو ما يجرى على الإنسان من مرض وشيخوخة ، ثم موت وما يجرى على الحياة من كوارث وأوبئة وزلازل وبراكين وطوفانات وحروب مهلكة فهذه كلها أمور عارضة ونحن نمرض ونصح وبدون المرض لا نعرف الصحة .. والمرض هو الاستثناء والصحة هى القاعدة

والزلازل والبراكين والطوفانات حوادث استثنائية وكل منها له وجه خير ومنافع وفوائد . وبالزلازل والبراكين تستعيد الكرة الأرضية توازنها كل عدد من السنين ولولا هذا التفريج والتنفيس المؤقت لانفجرت الأرض بالضغوط الهائلة فى داخلها .

والآلام والمشقات تربى الجلد والتحمل والمحن تشحذ العزائم كما تربى الأمراض الوقاية والحصانة .

والشر فى الكون كالظل فى الصورة يبدو من قريب عيبًا ، فإذا ابتعدت بعينيك ونظرت إلى الصورة نظرة كلية اكتشفت أن هذا العيب هو ظل ، وأنه جزء مكمل للصورة .

وفى هذا يقول ابن عربى إن نقص العالم هو عين كماله ، كما أن اعوجاج القوس هو عين صلاحيتها ولو أنها استقامت لانكسرت ولما رمت ... ثم إن عالم الدنيا كله عالم عارض زائل ، ولذلك كان شره عارضًا وزائلاً وقد جعله الله مقدمة لخير باق فى الآخرة .

والموت ليس نهاية وإنما بداية لفصل آخر ، وحياة أخرى ... والحكم على رواية بقراءة سطر واحد منها لا يكون حكمًا صحيحًا .. وإنما يجب الانتظار إلى أن تتم الرواية فصولا قبل أن نحكم عليها .

ثم هل يجب على الله أن يحقق السعادة للجميع ولماذا ؟ وكيف نوجب على الله مانجهل ؟ وكيف نلزمه بطرق تفكيرنا ووجهات نظرنا ؟

وهؤلاء الذين يريدونها جنة هل يستحقونها جنة .. وهم ينفثون فيها

الشر والحقد والسم فى كل لحظة ؟

ويقول الغزالى فى ذلك ويؤيده فى رأيه ابن عربى إن الإنسان لا يجرى عليه قضاء إلا من جنس استحقاقه .

« لا يظهر فيك ولا منك إلا عينك » .

بمعنى أنه لا يجرى عليك من الحوادث إلا من جنس قلبك ونيتك وضميرك .

ويقول ميترلنك فى هذا المعنى : « جرعتك من الماء دائمًا تساوى سعة فمك .. أنت لا تقابل إلا نفسك فى الطريق .. إذا كنت لصًا أسرعت إليك حوادث السرقة ، وإذا كنت قاتلا قدمت إليك الظروف الفرصة تلو الفرصة لتقتل » .

إن الله صاغ العالم على مقتضى العدل واختار بحكمته دائمًا أفضل الممكنات .

وتأمل الكون والحياة لا يكشف للباحث إلا الجمال والإبداع والنظام والعدل والقانون ، ولا توجد الفوضى إلا فى نظمنا نحن .

ولكن العيون التى فيها قذى والقلوب التى مالت عن الحق لا ترى إلا العبث والغثيان .. ولا تعمل إلا للإفساد والتهديم .

هؤلاء هم فرسان الشر وطلائعه .

فلنقرأ كل مايصل إلى أيدينا بحذر وبعقل ناقد فما أكثر ما يدس لنا

من سموم يراد بها هلاكنا .

ولنثق دائماً بأن الله كله خير وبأن مشيئته كلها رحمة ومن يشك فى كلامى فليقرأ المقال مرة أخرى من الأول .

شق فى الحائط

النملة التى تسكن شق الحائط وتتجول فى عالم صغير لا يزيد عن دائرة قطرها نصف متر ، وتعمل طول الحياة عملا واحداً لا يتغير هو نقل فتافيت الخبز من الأرض إلى بيتها تتصور أن الكون كله هو هذا الشق الصغير ، وأن الحياة لا غاية لها إلا هذه الفتفوتة من الخبز ثم لا شىء وراء ذلك .. وهى معذورة فى هذا التصور فهذا أقصى مدى تذهب إليه حواسها .

أما الإنسان فيعلم أن الشق هو مجرد شرخ فى حائط والحائط لإحدى الغرف والغرفة فى إحدى الشقق ، والشقة هى واحدة من عشرات مثلها فى عمارة والعمارة واحدة من عمارات فى حى والحى واحد من عدة أحياء بالقاهرة ، والقاهرة عاصمة جمهورية وهذه بدورها

مجرد قطر من عدة أقطار فى قارة كبيرة اسمها أفريقيا . ومثلها أربع قارات أخرى على كرة سابحة فى الفضاء اسمها الكرة الأرضية .. والكرة الأرضية بدورها واحدة من تسعة كواكب تدور حول الشمس فى مجموعة كوكبية .. والمجموعة كلها بشمسها تدور هى الأخرى فى الفضاء حول مجرة من مائة ألف مليون شمس .

وغيرها مائة ألف مليون مجرة أخرى تسبح بشموسها فى فضاء لا أحد يعرف له شكلا .. وكل هذا يؤلف ما يعرف بالسماء الأولى أو السماء الدنيا ، وهى مجرد واحدة من سبع سماوات لم تطلع عليها عين ولم تطأها قدم ومن فوقها يستوى الإله الخالق على عرشه يدبر كل هذه الأكوان ويهيمن عليها من أكبر مجرة إلى أصغر ذرة .

كل هذا يعلمه الإنسان على وجه الحقيقة .. ومع ذلك فما أكثر الناس أشباه النمل الذين يعيشون سجناء محصورين كل واحد مغلق داخل شق نفسه يتحرك داخل دائرة محدودة من عدة أمتار ، ويدور داخل حلقة مفرغة من الهموم الذاتية تبدأ وتنتهى عند الحصول على كسرة خبز ومضاجعة امرأة ثم لا شىء وراء ذلك .. برغم ما وهب الله ذلك الإنسان من علم وخيال واختراع وأدوات وحيلة وذكاء ، وبرغم ما كشف له من غوامض ذلك الكون الفسيح المذهل .

أكثر الناس بالرغم من ذلك قواقع وسلاحف ونمل كل واحد يغلق على نفسه قوقعته أو درقته أو يختبئ داخل جحر مظلم ضيق من

الأحقاد والأضغان والأطماع والمآرب .

نرى الذى يموت من الغيرة وقد نسى أن العالم ملىء بالنساء ، ونسى أن هناك غير النساء عشرات اللذات والأهداف الأخرى الجميلة .. ولكنه سجن نفسه بجهله وغبائه داخل امرأة واحدة وداخل جحر نملة واحدة التصق بها كما يلتصق بقطرة عسل لا يعرف لنفسه فكاكًا .

ونرى آخر مغلولا داخل رغبة أكالة فى الانتقام والثأر يصحو وينام ويقوم فى قمقم من الكوابيس ، لايعرف لنفسه خلاصًا ولا يفكر إلا فى الكيفية التى ينقض بها على غريمه لينهش لحمه ويشرب دمه .

ونرى آخر قد تكوم تحت الأغطية وغاب فى محاولة حيوانية لاستدرار اللذة مثل قرد الجبلاية الذى يمارس العادة السرية أمام أنثاه !

ونرى آخر قد غرق فى دوامة من الأفكار السوداوية وأغلق على نفسه زنزانة من الكآبة واليأس والخمول !

ونرى آخر قد أسر نفسه داخل موقف الرفض والسخط والتبرم والضيق بكل شىء .

ولكن العالم واسع فسيح !

وإمكانيات العمل والسعادة لا حد لها وفرص الاكتشاف لكل ماهو جديد ومذهل ومدهش تتجدد كل لحظة بلا نهاية .

وقد مشى الإنسان على تراب القمر !

ونزلت السفن على كوكب الزهرة !

وارتحلت الكاميرات التليفزيونية إلى المريخ !

فلماذا يسجن الإنسان نفسه داخل شق فى الحائط مثل النملة ويعض على أسنانه من الغيظ أو يحك جلده بحثًا عن لذة أو يطوى ضلوعه على ثأر ؟

ولماذا يسرق الناس بعضهم بعضًا ولماذا تغتصب الأمم بعضها بعضًا والخيرات حولها بلا حدود والأرزاق مطمورة فى الأرض تحت أقدام من يبحث عنها ؟

ولماذا اليأس وصورة الكون البديع بما فيها من جمال ونظام وحكمة وتخطيط موزون توحى بإله عادل لا يخطئ ميزانه .. كريم لايكف عن العطاء ؟

لماذا لا نخرج من جحورنا .. ونكسر قوقعاتنا ونطل برءوسنا لنتفرج على الدنيا .. ونتأمل ؟

لماذا لا نخرج من همومنا الذاتية لنحمل هموم الوطن الأكبر ثم نتخطى الوطن إلى الإنسانية الكبرى .. ثم نتخطى الإنسانية إلى الطبيعة وماوراءها ثم إلى الله الذى جئنا من غيبه المغيب ومصيرنا أن نعود إلى غيبه المغيب ؟

لماذا ننسى أن لنا أجنحة فلا نجرب أن نطير ونكتفى بأن نلتصق بالجحور فى جبن ونغوص فى الوحل ونغرق فى الطين ونسلم قيادتنا

للخنزير في داخلنا؟

لماذا نسلم أنفسنا للعادة والآلية والروتين المكرور وننسى أننا أحرار فعلا.

لماذا أكثرنا نمل وصراصير؟

الصدق والكذب

– نشاطركم الأحزان .

– للفقيد الرحمة ولكم طول البقاء .

– دموعنا لن تجف حتى نلتقى .

– إلى جنة الخلد مع الأبرار القديسين .

– خسارتنا بك لا تعوض .

– ذكراك العطرة تملأ قلوبنا .

– نرثيك وبدموع الحسرة نبكيك .

– خالص العزاء ولكم الصبر والسلوان .

– تشرب سيجارة .

– متشكر باشرب إنجليزى .

– آدى حال الدنيا .

– مين بيخلد .

– ترك فدانين وفيللا ف المعادى .

– مراته حاتورث ع الجاهز .

– هى الوليه التخينة اللى هناك اللى بتأكل بسطرمة .

– عينها تندب فيها رصاصة .

– كانت دايماً تقول عليه نسناس .

– صورتك فى خيالى ياأبى لن تفارقه .. بنتك أمينة .

– ثم بين أذرع الملائكة ياحبيبى ورحمة الله ترعاك .. زوجتك الوفية .

– الحزن يدمى فؤادى واللوعة عليك تحرقنى .. أختك أزهار .

– الحياة بعدك مستحيلة .. لن أسلوك أبدًا .. ولن أنسى عطفك وحسن رعايتك .. ابنك فتحى .

– مين اللى بتعيط بحرقة هناك .

– واحدة ماحدش يعرفها ولا تعرفشى حد .

– بتلطم وبتقول بنتى حبيبتى .

– بتعيط على حاجة تانية .

– كل واحد بيندب على نفسه .

– مراته بترقع بالصوت الحيانى .. عشان تهضم البسطرمة .

– ياشيخ حرام عليك .

– هى دايمًا بترقع بالصوت الحيانى فى كل مناسبة .. لما تضيع منها بكرة الخيط ترقع بالصوت الحيانى .. لما يعطل الأسانسير ترقع بالصوت الحيانى .. لما تقع كبايه ترقع بالصوت الحيانى .

– بتقول ياسبعى .

– ولو طلع من التربة تأكله وحياتك .

– أعوذ بالله إنت فيه بينك وبينها إيه .

– أصله كان دايمًا يشتكى لى منها الله يرحمه وكان يهرب منها وييجى يبات عندى ويقعد طول الليل يندب حظه ويقول مفيش حد يخلصنى من الوليه النكد اللى بتصرخ ليل نهار زى الكلاكس دى .. دنا ساكن فى جراج مش بيت .

– أهو ربنا خلصه .

(يٓس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) .

– الفقى بيقرا وما حدش بيسمع .

– وكل واحد يهز رأسه ويقول الله .

– حتى الفقى عقله فى حاجة تانية غير اللى بيقولها .

– صدقت .. لو كان عقله فى اللى بيقوله ما كانش قعد يلعلع كده وكان خشع شوية .

– حاجة عجيبة ! والله أنا صعبان علىّ الميت .. ولو كنت أنا الميت دلوقت كنت حابقى زعلان قوى على نفسى .. تصور يعملوا لى شادر ومندبة وملطمة ويوزعوا قهوة سادة على روحى .. ومفيش واحد منهم بيفكّر فى روحى .. طيب كان لازمته إيه .. طيب ما يدفنونى وخلاص مادمت بالنسبة لهم اندفنت وانتهيت .. إيه لازمته المورستان ده ؟

– كل واحد عاوز يحس أنه زعلان وأنه أدى الواجب .. إنت عاوز تنكد عليهم ليه يا أخى .. إنت عاوز تموت على كيفك .. المأتم ده معناه كل واحد جاى يموتك على كيفه .. فاهم .

– لا مش فاهم .

– أما تموت بإذن الله حاتفهم .

– حاكتب وصية إن ماحدش يكتب حرف أو يقدم نقطة قهوة على روحى .

– شعاع الشمس تجسد فيك .. أنت نور حياتى الذى لايغيب .. أنت فى سواد العين .. أنت فى شغاف القلب ياحبيبى .. اسمك تسبيحتى خيالك غرفتى .. ابتسامتك وسادتى التى أغفو عليها .. أنفاسك عطرى

المحبب .. كلماتك مصحفى المقدس الذى لا يفارقنى .. ذكراك تاريخى أيامك حياتى كلها .. لن أنساك أبداً .

حبيبتك الخافقة لعهدك حتى الموت

– تفتكر كانت بتحبه .

– كلامها حلو .. مؤكد كانت بتحبه ساعة ما كتبت الكلام ده .. لكن بعد كده ما اعرفش .. كل شىء جايز يتغير فى دنيا القلوب .. بيسموها قلوب لأنها تتقلب .

– ألا يوجد شىء باق ؟

– الله باق .

* * *

كنا عائدين من أداء الواجب حينما قال لى صديقى :

– أنعيش فى كذب دائم ؟ ألا يوجد صدق ؟

قلت له :

– بل نحن نصدق دائماً ولكنه صدق محدود ، صدق لحظتها .. كلماتنا عمرها عمر الرسم على الماء والنقش على الرمال .. وهى فى العادة صادقة فى حدود هذا العمر القصير إلا فيما ندر .

– وبعد ذلك .

– بعد ذلك تتغير الظروف وتتبدل الملابسات وتمتحن العواطف والأقوال والأعمال .. وتبتلى النفوس فى جواهرها وتتقلب القلوب ..

ويأتى بعد الليل النهار وبعد النهار الليل .. فنحن على أرض تدور .. أليس كذلك ؟

– ألا يوجد حب يصمد للامتحان ألا يوجد حب باق ؟

– أحيانًا .. ولكن هذا الحب الباقى فى العادة تعيا عن حمله الكلمات .. والذى يحب هذا الحب إذا حاول أن يعبر عن نفسه لا يخرج منه إلا كلام عبيط .. أو عبارات بلا معنى .. ومثل هذا الحب يكون فى أغلب الأحوال أزمة فى الصدر وعطشًا خلف الضلوع لا ارتواء له ولا حل له .

– إنى أتمنى أن تحبنى امرأة هذا الحب .

– إنى لا أتمنى أن تحبنى امرأة هذا الحب أبدًا .

– لم ؟

– لأن المرأة التى تحب هذا الحب لا تسامح .. إنها ترى نفسها قد أعطت روحها فلا أقل أن تأخذ روحى والذين يحبون هذا الحب هم بين قاتل ومقتول وأنا لا أحب أن أكون أحدهما .

– بل هو الحب الرائع .

– بل هو الإشراك بعينه وعبادة المخلوق من دون الخالق ، وهذا ماقاله الإمام الغزالى فى حب المرأة الواحدة إذا كان استغراقًا وصبابة .. قال إنه السقوط فى الشرك . وهذا أباح الإسلام تعدد الزوجات ليحول دون هذا الاستئثار .. وحتى لايكون التوحيد إلا لله .

— وهل تظن أنك تختار قدرك . . ألا يمكن أن يداهمك هذا النوع من الحب برغم أنفك فلا تملك منه فكاكًا ؟

— إنه يكون مصيبة . . وكارثة وأسرًا . . وسجنًا .. وأغلالا . . ومثل هذا الحب لايكتبه الله إلا على عبد غضب عليه ولعنه وأضله وأرجو ألا أكون من المغضوب عليهم ولامن الضالين . . وأرجو أن أعرف معبودى فلا أضل عنه وأنه هو الله وحده جامع الكمالات . . الأجمل من كل جميل .. مهوى الأفئدة وسكن الأرواح .

— وماذا للمرأة المثلى عندك ؟

— لها عندى المودة والرحمة والصحبة الطيبة . . ولا أكثر .. لا غل ولاقيد ولاأسر .. وإنما ضيافة كريمة يستضيف فيها كل منا الآخر مدى أيام الدنيا الشقية ويعاونه على تحملها .

— سوف أعيش وأفرح فيك وأراك بإذن الله فى الأسر والغل والقيد غريقًا لشوشتك فى أذيال امرأة حتى تتوب عن تعذيبنا .

— تبت .. ولاداعى للبلاء .. اللهم لاتدخلنا فى تجربة . . اللهم لاتكتب علىّ إلا حبك .

— وهل يتنافى حب الله مع حب الناس ؟

— بل هو يدعو إلى حب الناس ولكن بلا غل وبلا قيود وبلا عبودية حب المودة والرحمة لأسعار الغرام وضرام الشهوات .

— وهل يمكن أن يغنيك حب الله عن الحاجة إلى غرام بشرى ؟

- نعم إذا استطعت أن أفهم معنى النظر إلى وجهه ومعنى أن كل شيء هالك إلا وجهه . . ومعنى أن عشق الهالكين هو الهلاك معهم وأن فى حبه وحده الخلاص والعتق والحرية .

- وكيف تنظر إلى وجهه ؟

- أستشفه فى صدح الطيور وفى نور الفجر فى جناح الفراش وفى بصمة الأصبع وفى عطر الوردة وفى العدل المستتر وراء الألم والحكمة الخافية فى العذاب .. وأشعر به فى استسرار الليل وإبهام الموت وطلسم القدر . . وأحس به فى الحقائق التى تُلقى فى عقلى بلا لغة وبلا عبارة وفى السكينة التى تسعفنى ساعة الخطر وفى الوضوح الرائع الذى يتجلى علىّ لحظة الأزمة . . وفى الإحساس الحميم بالصحبة والونس وأنا وحدى ، وفيما هو أكثر من ذلك من لطائف الأسرار التى يمكن أن تحدث بين العبد وربه مما لايكتب ولا يقال .

- أهناك شيء لايمكن أن يقال ؟

- كل ماهو مطلق لايمكن أن يقال .

- وكيف نعرفه ؟

- لانعرفه ولكن نكابده .. إحساسك بذاتك مكابدة وليست معرفة ومع ذلك فهى أعلى من جميع المعارف فى درجة اليقين .. ذاتك أمر لايرقى إليه شك .. ومع ذلك فهى أمر لايمكن أن يتوضح كما تتوضح سائر المعارف . . والحقائق العليا كلها مكابدات وليست

معارف . والمتصوفة يسمون هذا الإحساس بالله .. حضوراً .. وحضرة .

- وهل يمكن أن نصل إلى هذه الحضرة بالاجتهاد ؟
- لانستطيع إلا أن يساعدنا هو .
- وهل دخلت هذه الحضرة ؟
- أنا أبعد الناس عن هذا الشرف ، أنا حالى مثل حالك ومثل حال المرحوم الذى دفناه اليوم ومثل حال الخطائين الذين يتقلبون مع الليل والنهار .. ولكنى أحاول .. مجرد محاولة .

هل كان لنا وجود قبل أن نولد

يلازمني إحساس منذ بدأت أعي وأدرك وجودي أني كنت موجودًا دائمًا وأني حقيقة ولست أمرًا طرأ بالميلاد ، وأني كنت هنا أو هناك في مكان أو لامكان لست أدري .. إنما هو إحساس دائم ومؤكد بالحضور لا أعلم كنهه ومصدره .. وكل مايحدث أمامي الآن هو مرور شريط متتابع لأحداث متتالية لماض وحاضر ..

وهو شريط يمر أمامي ولكني في الأعماق خارج عن هذا الشريط واقف على عتبة حضور مستمر وآنية مطلقة لاتعرف تزامنًا .. أراقب تصاريف الزمن أمامي عن بعد ، وأراقب طفولتي وصباي وشبابي وشيخوختي دون أن تدركني أنا أي شيخوخة فأنا .. ذاتي .. شباب دائم .. وحضور دائم .

ويؤيد هذا الإحساس الداخلى حقائق الدين التى تقول بأنى أحاسب وأعاقب وأموت فلا أموت وإنما أنتقل إلى حياة برزخية ، ثم إلى بعث ثم إلى خلود فى نعيم أو خلود فى شقاء ..

فأنا إذن خالد ..

وأنا لست مسألة طارئة استجدت بالميلاد وستنتهى بالموت ولو أنى كنت أمرًا طارئًا زائلا لما كنت حقيقة ، بل مجرد ظاهرة موقوتة ، تلمع ثم تختفى فلا تعود ، ولا تصبح هنالك حكمة فى بعث وحساب وعقاب .. وعلام العقاب ولاحقيقة هناك ..

وفى القرآن الكريم إشارة خاطفة إلى هذه السابقة الوجودية قبل الميلاد : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) .

[التين ٤ — ٦]

ومعنى ذلك أنه كان هناك خلق أولى على أحسن تقويم ..

وهذه الخلقة لايمكن أن تكون خلقتنا التى نعرفها فى الدنيا بجسمنا الذى يتعب ويمرض ويتلف ويشيخ ويموت .

والله يصف كمال خلقة السماء فيقول : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج)

[ق — ٦]

أى ليس بها ثغرات أو نقاط ضعف ومع ذلك فقد جعل الله فى

خلقتنا فرجًا وثغرة هى مدخل الشهوة والهوى ، بل إنه سمى هذا الفرج سوأة وعورة وقال فيما مافعل إبليس بآدم وحواء بأنه (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما) [الأعراف : ٢٧]

فكيف يكون الخلق الذى جعله الله فى أحسن تقويم ثغرة وسوأة وعورة ، ولماذا سمى حياتنا هنا بالحياة الدنيا [أى الواطئة والسافلة] ، إلا أن تكون تلك الحياة هى أسفل سافلين التى رددنا جميعاً إليها بعد النشأة الكاملة فى أحسن تقويم . . أهبطنا الله فى هذه الجبلة الطينية التى بها الفرج والسوأة لنعيش حياة الابتلاء والمعاناة والمكابدة .

(لقد خلقنا الإنسان فى كبد) ، يحرمنا مما نحب ويحملنا مانكره ليرى كيف يكون صبرنا واحتمالنا ولتظهر بذلك صفاتنا .

وإنما يظهر الإنسان على حقيقته إذا حرم مما يحب ، وإذا حمل مايكره فهنا تتفاضل النفوس فهناك نفس تحمد وتشكر ولاتعترض وتفوض الأمر إلى الله وهناك نفس تعاتب ربها وتحتج . . وهناك نفس تسب الملة والدين وتتشاجر مع الله ومع الناس . . وهناك نفس تتعجل فتسرق وتقتل وتعتدى لتصلح حالها وتنهى حرمانها . .

وهكذا تتفاضل النفوس وتظهر الحقائق ، ومن أجل هذا خلق الله الدنيا وأنزلنا الله هذا المنزل فى أسفل سافلين لتظهر لنا حقائقنا .

وماخلق الله السموات والأرض إلا بالحق وللحق ولإظهار الحق

وفى آية أخرى يقول : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) .
[الإنسان : ٢٨]

ولقد فهم السلف « شد الأسر » بأنه أشبه بشد دعائم البناء وتقويته . . ولكنى أقول ولماذا لانأخذ المعنى على ظاهره بأن الله وضعنا فى الأسر فى أسر هذه الجبلة الطينية وشد وثاقنا وبهذا أنزلنا من مرتبة الخلق فى أحسن تقويم إلى عالم أسفل سافلين وهو إهباط عام لااستثناء فيه .. وإنما استثناء الصالحين فى الآية .. هو استثناء فى الأجر بعد الموت .

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) .

فالصالحون أيضًا يردون معنا إلى أسفل سافلين ولكن لأنهم صبروا واحتسبوا وسابقوا إلى الخيرات ، فلهم بعد الموت والخروج من عالم أسفل سافلين أجر غير مقطوع فى الجنة . أما المجرمون فمصيرهم بعد الخروج من أسفل سافلين بالموت ، العقاب بأسفل سافلين أخرى هى العذاب الأبدى فى الآخرة ... فهم فى أسفل سافلين أبدًا ..

ثم إننا نرى إشارات أخرى لهذه السابقة وهذا الوجود العلوى فى أحسن تقويم قبل النزول إلى الأرحام (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) [آل عمران : ٨١]

أين وكيف جمع الله النبيين وأخذ عليهم الميثاق مجتمعين ونحن نعلم

أنهم جاءوا إلى الدنيا متفرقين متباعدين بالموت والميلاد إلا أن تكون تلك الجمعية حدثت فى عالم آخر ومستوى آخر من الخلق ؟

ثم لماذا يقول المجرمون يوم انكشاف الحقائق ساعة البعث والحساب ، (ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) [غافر : ١١]

متى كانت هاتان الموتتان ونحن لانعلم ولانرى إلا ميتة واحدة .

إن هذا الكلام وثيقة هامة تؤكد وجود حياتين وموتتين .. ومعنى الموت ليس الإعدام والملاشاة ولكن النقل من حال إلى حال فالله يسمى النقل من الحياة الدنيا إلى الحياة البرزخية موتًا وإماتة .

وبهذا المعنى يمكن أن نفهم الإماتة الأولى المذكورة فى الآية بأنها كانت الإماتة عن الخلق الكامل فى أحسن تقويم وإنزال النفوس فى الأسر .. فى أسر الجبلة الطينية تعيش وتكابد بفروجها وسوآتها فى أسفل سافلين .

ثم تأتى الموتة الثانية بالنقل من هذا الحال من البلاء . إلى حال الحياة البرزخية فى القبور . . ثم يكون الإحياء الحق بالنفخ فى الصور والبعث .. فتلك حياتان « حياتنا الأولى فى أحسن تقويم وحياتنا فى الآخرة » ولانحسب الحياة البرزخية فى القبور حياة لأنها حياة ناقصة شبحية وكذلك حياتنا الدنيا فهى الأخرى ناقصة وفانية وزائلة

ومعيبة .. (ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) [غافر : ٣٩] .

(وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) [العنكبوت : ٦٤] أى هى الحياة الكاملة الحقة .

وحياتنا الدنيا التى خيل إلينا أنها سنوات طويلة مديدة سوف نرى حين البعث أنها لم تكن أكثر من ساعة من نهار (كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) فهى إذن حياة لاتساوى شيئًا فنحن إذن أمام حياتين كاملتين : حياتنا فى أحسن تقويم قبل الميلاد وحياتنا فى الآخرة بعد البعث .

ثم ذلك المشهد الذى استخرج فيه الله ذرية آدم من ظهره قبل ميلادها وقبل مجيئها وأشهدها على ربوبيته فاعترفت وشهدت بذلك .. متى وأين وكيف كان ذلك ؟ . .

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) [الأعراف : ١٧٢ - ١٧٣] .

فذلك كلام وحوار بين الله وبين كل نفس .. منفردة أو الكل مجتمعين . . الذرية كلها . . لاأحد يدرى . . يقول فيه رب العالمين . . هاأنذا قد جئت بالابن قبل أن يولد من أبيه . . حتى لاتقولوا إنما أضلنا الآباء فضللنا من بعدهم . . بل ها أنتم قد أحضرتكم من قبلهم .

« وذلك قلب لمفهوم الزمن وإتيان بالمستقبل قبل الحاضر» ولا ندرى أين ومتى وكيف كان هذا الإشهاد ؟

وقد أقرت جميع النفوس وقالت . . بلى شهدنا يارب . ثم الحديث النبوى الثابت والصحيح الذى يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام « كنت نبياً وآدم يجدل فى طينته » فهذا إذن وجود سابق وخلق سابق على الميلاد ، وقد فهم منه الصوفيون نظريتهم التى يرددونها فى الحقيقة المحمدية . . فمحمد عليه الصلاة والسلام وإن جاء آخر الأنبياء فى البعث إلا أنه خلق أولهم بالحقيقة وذلك هو الخلق النورانى فى أحسن تقويم .

ويلزم القول أنه أمر لم ينفرد به النبي عليه الصلاة والسلام بل إن لكل منا حقيقة سابقة على ميلاده هى خلقه النورانى الأول قبل النزول فى الطين والخلق فى الأرحام .

كلنا كانت لنا سابقة وكنا حقائق قبل أن نصبح أجساداً . والسؤال الأكبر . . هو . . ماذا قبل ؟ وماذا كنا قبل خلقنا فى أحسن تقويم وقبل تسويتنا شخوصاً نورانية ؟ وهل كنا عدماً معدوماً ؟ إن الله يقول :

(وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) [مريم : ٩] فنفى الله عنا الشيئية ولم ينف عنا الهوية بل إنه ليؤكد لنا هذه الهوية قبل الخلق فى آية أخرى : (وإنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) [النحل : ٤٠]

فهذا المخلوق إذا أردناه نقول له كن فيكون . فكلام الله يتوجه إلى هوية فى العدم . (نقول له) « لمن .. تلك هوية كائنة قبل أن تخلق وهذا توكيد بأنه كانت لنا هوية فى العدم وإننا لم نكن معدومين قبل تسويتنا فى أحسن تقويم « أين كنا ؟ وأين كان ذلك ؟ » .

يقولون فى العلم الإلهى المحيط الذى لايعزب عنه ذرة ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة .

كنا أسرارًا مكنونة معلومة فى خزينة علمه بشخوصنا وحقائقنا وخيرنا وشرنا وطبائعنا وفى ذلك يقول ابن عربى :

إن التشخص أزلى وليس عارضًا وهو يسمى هذه الأسرار المكنونة فى خزينة العلم الإلهى وفى كنوز الجود .. يسميها « الأعيان الثابتة .. ويقول إنها قديمة وأزلية وليست بجعل جاعل .. أى أن الله لم يتدخل بجعلها على هذه الحقيقة أو تلك ولهذا يقول ابن عربى إن الله يخاطب المجرمين يوم القيامة قائلا :

« ماحكمنا عليكم ولكن هكذا كنتم » .

أى هكذا كنتم أشرارًا من الأزل لم أخلق فيكم شرًّا وإنما وضعتكم فى منازلكم ومراتبكم لم أحكم على أحد بظلم ولو عرفتمونى وسألتمونى الفضل لأعطيتكم ولكنكم أنكرتمونى ورفضتم رحمتى ورددتم يدى الممدودة وقطعتم الحبل بينى وبينكم فى الدنيا وناديتكم فلم تسمعوا وواعدتكم فلم تلبوا .

وتلك منتهى الحرية والمسئولية لاجبر ولاقهر على شيء .

الكل تلقى النداء والكل امتدت إليه اليد بالرحمة وألقيت إليه النذر وحفت به الملائكة تدعوه بالخواطر الطيبة وجاءه الرسل والأنبياء والكتب والمذكرون والمعلمون .

والذى لم يتيقظ من غفلته حاولنا إيقاظه بالبلاء وبالمكاره والمصائب حتى استنفدنا معه الأسباب .

تلك حياة ممتدة إذن .. ووجود ممتد .. له فصول .. فصل بعد فصل وخلق بعد خلق .. لم ننقطع عن الحضور لحظة منذ الأزل وإنما ظللنا فى انتقال من حال إلى حال .. لم يكن أمرنا أبدًا عدمًا معدومًا .

ألهذا يحدث دائمًا أن نحب أحدًا دون مقدمات .. أو ننفر منه دون مقدمات ؟ أيكون هذا الشعور لمعرفة سابقة ولقاء سابق قبل الميلاد فى ذلك الغيب الأول ؟ أهى ذكرى باهتة لتلك النفوس التى تعارفت وتنافرت وتحابت وتناكرت منذ الأزل ؟ ألهذا يكرر القرآن الكريم دائمًا ؟

(لعلكم تذكرون) [الأنعام : ١٥٢] (فذكر إنما أنت مذكر) [الغاشية : ٢١] (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) [يس : ٦٩] (كلا إنه تذكرة . فمن شاء ذكره . ومايذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة) [المدثر : ٥٤ — ٥٦] (فمالهم عن التذكرة معرضين) [المدثر : ٤٩] (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى)

[الفجر : ٢٣] (يوم يتذكر الإنسان ما سعى) [النازعات : ٣٥] (فذكر إن نفعت الذكرى) [الأعلى : ٩] (ذلك ذكرى للذاكرين) [هود : ١١٤] وكل القرآن ذكر وتذكير وتذكرة وذكرى .

ومشهد استحضار الذرية من ظهر آدم قبل ميلادها وإشهادها على الربوبية تذكير وتصوير وتجسيد إجبارى عملى واقعى لهذه القصة التى سوف تتعدد فصولا ..

أتعنى تلك الآيات أنه كانت لنا حياة قبل أن نولد .. ؟ الله أعلم بكتابه .. ولا أدعى تفسيرًا .. إنما هى محاولة فهم قد تكون خاطئة والأمر يصيب الإنسان بالخوف والرهبة والخشية والدوار إذا استجمعه كله فى ذهنه .

فما خلق الله السموات والأرض ليلهو وماخلق الإنسان سدى (وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين) [الدخان : ٣٨] (ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك) [آل عمران : ١٩١] .

والأمر جاد ولاعبث هناك ، ولاندرى متى يأتى الموت وتنصب الموازين وتنكشف الحقائق وتهتك الأسرار . وإدمان التأمل يورث الرجفة فى القلب .

ماذا فى سرائرنا ؟ وماذا تخفيه الضمائر ؟ وماذا تبطن النيات وهل تستخفى فى صدورنا الحمائم أو الأفاعى ؟

هذا خلقنا الله وخلق لنا الدنيا ونقلنا فى الأحوال وداول علينا الأيام والليالى ليكشف لنا المستور والمكنون والمكتوم من نفوسنا . (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) [فصلت : ٥٣] .

ويصعب على البعض أن يتصور أنه كانت له سابقة قبل ميلاده ومع ذلك فنحن نرى الأطفال الرضع يتفاضلون بخيرهم وشرهم منذ ميلادهم فمنهم من يعض الثدى فى شره عدوانى ومنهم من يربت عليه فى حنان .

يفعل كل منهم ذلك ابتداء وليس كرد فعل على البيئة فالبيئة واحدة فى الحالتين وهى الأم . . والأم تدرك هذا فتقول إن هذا طفل شرير وهذا طفل طيب لقد جاء كل منهم بشخصية مختلفة وأقبل على الدنيا بخيره وشره وبدأ يتصرف على وفاق حقيقة سابقة .

ألم يقل عيسى وهو فى المهد (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً) [مريم : ٣٠ - ٣١] والسؤال .. متى أتاه الكتاب .. ومتى جعله نبياً ومتى جعله مباركاً ومتى أوصاه .. وهو يتكلم فى المهد لم يكد يلقم الثدى بعد .

هذا الكلام صريح ومباشر عن أمر سبق فى مستوى من الخلق

سبق . والمتكلم وهو عيسى من البشر وليس الله لنقول بالتعالى على الزمن ومحو الحدود بين ماضى وحاضر ومستقبل . المتكلم هو عيسى بحدوده البشرية وتقيده بالزمان والمكان . . فإذا قالت الآية بماض فهو ماض لاشك فيه .

وإذا قال المتكلم إن الله أوصانى .. فإن المعنى المباشر والبسيط يجب أن نفهم منه أن الله أوصاه فى الماضى . . « قبل مولده » .

وإذا قال إن الله آتاه الكتاب . . فإن المعنى الذى يجب أن يرد على الذهن أن الله قد آتاه الكتاب فى الماضى قبل مولده .

ذلك هو مدلول اللفظ العربى .. ونحن لانتجنى على الألفاظ ولا نلويها ولا نخرجها من مدلولاتها والكلام عن الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو ، وبأنها مجرد متاع وبأنها مجرد ساعة من نهار ليس من عندنا بل من عند الله خالق هذه الحياة فهى لا تساوى عند خالقها شيئًا بالنسبة لعظمة الحياة وكمالها فى الآخرة فالحياة بحق هى حياة الآخرة وهى التى تحسب ويؤخذ لها ألف حساب وحساب ..

وحكم هذه الدنيا أشبه بحكم بروفة مسرحية فهى مهمة فقط من حيث ابتلاء الممثلين واختبار قدراتهم ولكن لا اعتبار لها فى النهاية وإنما الاعتبار كل الاعتبار للعرض النهائى على الجمهور .

أما تصور البعض أن الإنسان بخلقته الحالية . . ذلك الإنسان الذى

يبول ويغوط ويتمخط ويتعب ويمرض ويشيخ وتصيبه المعاطب والمتالف من كل جانب .. تصوره أن هذه الخلقة هى أحسن تقويم ممكن .. وأنها هى المقصودة بالخلق على أحسن تقويم .. فهذا رأى لن يوافقه عليه الكثير .. ونحن لانخرج عن مدلول اللغة حينما نتصور حالة أكمل من الخلق سبقت .. ثم جاء هذا الخلق الدنيوى فوضع الله مدخلا للهوى والشهوة فى هذا الإنسان ليمتحن صلابته وإيمانه .

وفى النهاية نحن أمام آيات تحمل أكثر من وجه ومن وجوه التفسير .

ولايستطيع أى طرف أن يدعى بأنه وضع يده على سرها أو علم مراد الله منها .. فلا يعلم مراد الله إلا الله وإنما يجتهد الكل ويحاول الكل والمحاولات جميعها تحتمل الخطأ والصواب والعلم عند الله وإعمال الفكر فى القرآن ضرورة وليس ترفًا .

والتفكير فى السابقة والخاتمة لايشغل المسلم عن أمر مفيد فهو عين الذكر وعين الفائدة .. وهو يورث فى القلب الخشية والتقوى .

نعم إن الأمر صدق وحق .. ولاشىء يستحق البكاء من الإنسان أكثر من خطيئته ولاشىء يستحق أن يتمزق له القلب أكثر من أن يخطئ وهو يعلم أنه يخطئ ويتردى وهو يعلم أنه يتردى ، إنه لأفضل له أن يتمزق ألف قطعة كل قطعة تتألم وتتعذب ولايرتكب الخطأ ولو علمنا لما طلبنا من الله ساعة السجود إلا طلبًا واحدًا .. ألا نخطئ ..

وذلك هو العلم الذى هو بداية التقوى ، وذلك هو العلم الذى يبدأ على حافة الرعب .

حينما يفكر العقل فى المبدأ والمنتهى والغاية فيخر ساجدًا وهو يرتجف .. سبحانك .. سبحانك .. مغفرتك .. رضوانك ..

فهرس

صدر للمؤلف

٤٥- لماذا رفضت الماركسية
٤٦- نقطة الغليان
٤٧- عصر القرود
٤٨- القرآن كائن حَيّ
٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامي
٥٠- نار تحت الرماد
٥١- المسيخ الدجال
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة
٥٣- جهنم الصغرى
٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر
٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة
٥٦- الإسلام ... ما هو ؟
٥٧- هل هو عصر الجنون ؟
٥٨- ويدأ العد التنازلي
٥٩- حقيقة البهائية
٦٠- السؤال الحائر
٦١- سقوط اليسار

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود	صدرت في بيروت عام ١٩٧٢
روايات مصطفى محمود	صدرت في بيروت عام ١٩٧٢
مسرحيات مصطفى محمود	صدرت في بيروت عام ١٩٧٢
رحلات مصطفى محمود	صدرت في بيروت عام ١٩٧٢

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠